بناء الأسلوب المسيطر (دراسة في النسق العالي)

أ.د. ناصر راضي الزهـــري(*)

المقدمة:

الحمد لله أنزل كتابًا كالشمس وضحاها، وشفعه بسنة كالقمر إذا تلاها، فمن عاش بهما كان كالنهار إذا جلاَّها، ومن تركهما كان كالليل إذا يغشاها.

ونصلي ونسلم علي خير رسله وخاتمهم، وآله، وأصحابه، ومن تـــبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإن من جمال الأسلوب، وجلاله ما يُوجب الحُبَّ، ويأخذ اللُّبَّ، ويـــسحر القلب ما بين كمال المبنى، وجلال المعنى.

(وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوَقع في القلوب والـــتمكن فـــي النفوس ما يذهل،ويبهج ويقلق ويؤنس ويطمع ويـــؤيس ويـــضحك ويبكـــي ويحزن ويفرح ويسكن ويزعج ويشجي ويطرب ويهز الأعطـــاف ويـــستميل نحوه الأسماع ويورث الأريحية والعزة،وقد يبعث على بذل المهج والأمـــوال شجاعة وجوداً،ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً،وله مـــسالك فـــي النفوس لطيفة ومداخل إلى القلوب دقيقة) (١)

ولما كان للكلام هذا الأثر الخطير كان لصاحب الأسلوب المسيطر سطوة وسلطان يبلغان به صدارة الناس في كل مجال صار إليه، وهو أمر يشهد به الواقع فقلما تجد قائداً بارزاً أو حاكماً مميزاً إلا وقد أخذ من هـــذا الأســـلوب مأخذه، ونال من البلاغة قدراً بقدر تمكُّنه من أدوات لغته.

فلابد للأسلوب البليغ من الاشتمال على عدة عناصر ليكون حقيقاً بهذا الوصف منها: الجمالُ المؤثر في النفس الإنسانية، المفطورة على حب كـــل جميل، والارتياح له، ومنها فصاحة الكلام في مفرداته وجُمَلِهِ وفْقَ ضـــوابط، وقواعد، ومنهج اللّسان، ومنها أن يكون الكـــلام مطابقـــاً لمقتـــضَى حـــال

(*) أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الآداب والعلوم– جامعة سلمان بن عبد العزيز– المملكة العربية السعودية.

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (أبي بكر محمد بن الطيب ٤٠٣ هـــ) صـــــ ٢٧٧ ت ــ أحمد صقر ط ٣ ط دار المعارف.

المخاطب به فرداً كان أو جماعة، وبالغاً التأثير المرجوَّ في نفسه. هذه العناصر ضرورية ليكون الأسلوب بليغاً.

ولكي يكون الأسلوب مسيطراً يجب أن يضاف إلى ذلك بعض العناصر الخاصة التي تحيط الوجدان، والنفس بكل ما يقطعها عن شواغلها، ويجعلها أسيرة التعبير، فيحوي ما يحقق الإنصات ابتداءً، وما يحقق استمرار الأثر، وثبات المعنى انتهاءً، وما يحقق التقرير، والتوكيد، والإمتاع النفسي فيما بين ذلك.

وهي أمور ترجع إلى عبقرية المتكلم، وامتلاكه لأدوات لغته، وحسن تصرفه، وقوة أسلوبه، وجلال معناه.

وقد تصدَّر البيان النبوي ذروة سنام الأساليب البشرية في جمع عناصر سيطرة الأسلوب ضرورة أن الرسول ﷺ أحاط باللغة، وتكشّفت له بأسرارها وملك ــ عن جدارة ــ أدواتها ؛ هذا مع كشفٍ خاص لأحوال من يخاطبهم، واستشعار لبواطنهم.

نضيف إلى ذلك ما رآه وعلمه من الدين بالضرورة، فقد رأى الملكوت السفلي بجنِه وإنسه ودوابّه [١] [٢].

ورأى الملكوت العلوي ورأى مشاهد من الآخرة ليلة الإسراء [٣] ورأى الجنة بنعيمها، ورأى النار بجحيمها [٤].

---

(١) قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا...صحيح مسلم كتاب: (الفتن) باب: (هلاك هذه الأمة بعضها ببعض) رقم (٢٨٨٩) وقال أيضا [... مَا مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا.....] رواه البخاري في الصحيح ــ ينظر عمدة القارى ــ بشرح صحيح البخاري ــ للإمام بدر الدين العينى (٨٥٥هـ) جـ٣ صـ ٦٦ رقم (٤٨) طبع ونشر علماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية.

(٢) رواه البخاري في الصحيح ــ ينظر عمدة القارى ــ بشرح صحيح البخاري ــ للإمام بدر الدين العينى (٨٥٥هـ) جـ٣ صـ ٦٦ رقم (٤٨) طبع ونشر علماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية.

(٣) ينظر حديث الإسراء في صحيح مسلم حـ١ صـ ١٤٥ كتاب الإيمان رقم (٣٥٩).

(٤) قال ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ فَلَمْ أَرَ كَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٨٣٢. كتاب: (الفضائل) رقم (١٣٦).

ورأى كل المواقف التي تمر بأمته فـــي الحـــشر والنـــشر، والثـــواب والعقاب[1].

كل هذه المشاهد التي رآها – ﷺ – عين يقين [2] تحوَّلت إلـــى معـــانٍ جاشت في صدره وحملها قلبه، بُعث لينقلها ــ بصدق الأنبياء ــ بكل دقائقها إلى أمته.

ومن هنا صدرت كل عبارة، بل كل كلمة وحرف؛ لتحمل دفقة من هـــذه المعاني الجليلة، ومضة نور ــ تضيء طريق الخيرات ــ أو قذفة نار تحرّق مواطن الشبهات والشهوات.

بل الأعجب من ذلك أن همساته وإشاراته وحركاته المصاحبة للأقوال كانت تحمل دفقات من هذا الطراز، لا تَقِلُّ في بلاغتها عن أكثـــر العبـــارات عمقا وأجملها بلاغة.

ولكل ما سبق وجدنا الحديث النبوي حمل أكثر هذه الوسائل لـــسيطرة الأسلوب وهو ما شهد به أساطين البلاغة وأهل البيان في عصره.

ومما يدل على قوة سيطرة الأسلوب النبـــوي فـــي تقريـــر المعـــاني، وتقريبها بطريقة تشعل كل طاقات النفس وتأخذها في كامـــل الاستـــشراف، والشوق حتى تطوِّف بها في أرجاء المعنى فتعيه بكل ذرة في كيانها ما جاء عن حنظلة بن الربيع الأسيدي – رضي الله عنه – وكان من كُتَّاب رســـول الله – ﷺ – قال: لَقِيَنِي أبو بكر، فقال: كيف أنتَ يا حنظلَةُ؟ قال: قُلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قالَ: سبحان الله ! ما تَقُولُ؟ قال: قُلْتُ: نكونُ عند رسول الله – ﷺ – ، يُذكِّرُنا بالنَّار والجنَّةِ [حتَّى] كأنَّا رأيَ عَيْنٍ، فإذا خرجنا من عند رســـول الله – ﷺ –، عافَسْنا الأزْواج والأولاد، والضَّيْعات، ونسينا كثيرًا، قـــال أبـــو بكر – رضي الله عنه –: فوالله إنَّا لَنَلْقى مثل هذا، فانطلَقْتُ أنا وأبـــو بكـــر حتى دخلنا على رسول الله – ﷺ –، فقلت: نَافَقَ حنظلَةُ يا رسول الله. فقـــال

(١) قال ﷺ: (إنَّهُ عُرِضَ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ تُولَجُونَهُ.....]صحيح مسلم جـــ٢ صـــ ٦٢٢ كتاب الكسوف رقم (٩).

(٢) (رؤية عين بأن كشف له دونها فرآها علي حقيقتها،وطويت المسافة بينهما....) شرح الزرقاني علي موطأ الإمام مالك ــ (للإمام محمـــد الزرقـــاني) جـــ١ صـــ٣٧٧ ط دار الفكر سنة ١٤٠١ هـــ – سنة ١٩٨١م.

رسول الله – ﷺ –: «وما ذاك؟» قلتُ: يا رسول الله نكون عندك تُذكِّرُنا بالنار والجنة [حتى] كأنَّا رأيَ عَيْنٍ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيْعاتِ، ونَسينا كثيرًا. فقال رسولُ الله – ﷺ –: «والذي نفسي بيده، لو تَدومُونَ على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحَتْكم الملائكة على فُرُشِكُم، وفي طُرُقِكم، ولكن يا حنظلةُ ساعَةً وساعَةً – ثلاث مِرار ».[١]

لقد سيطر الأسلوب العالي على وجدانهم وجعلهم يحلقون مع المعاني كأنهم بداخل الجنة يرون ويسمعون حقيقة وقد كان – ﷺ – يحثهم ويدفعهم إلى التأمل والتحليق في البيان العالي وتدبر المعاني التي تعمِّق الإيمان لاسيما الأسلوب القرآني المعجز فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما : قال: قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–: «مَن سَرَّهُ أن يَنْظُرَ إلى يومَ القيامة كأنَّهُ رَأيُ عَيْن فليقرأ: إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ و: إذا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ و: إذا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ».[٢]

وهو بذلك يفجر أقصى طاقات التأمل، ليضيء جانبًا فريدًا في النفس البشرية، ويغرس في وجدانهم غرسًا جديدًا لم يألفوه، ويحلِّق بهم في مظان النعيم بغيب لم يسمعوه، ويفتح في معارفهم بابًا عظيمًا يبدأ ثم لا ينتهي.

ولذا نجد البيان النبوي أكثر الأساليب البشرية اتساقاً، وسيطرة على حواس المخاطبين لاكتمال عناصر الجمال مع جلال المعاني، ودقة النسق، وقوة البناء.

وبعيدا عن البيان النبوي الناس متفاوتون في قوة البيان على قدر قربهم أو بعدهم من عهد الفصاحة الذي بعث فيه النبي ﷺ ومتفاوتون كذلك على قدر ملكاتهم وامتلاكهم لأدوات لغتهم.

قال الإمام عبد القاهر عن تفاوت الكلام وتقدم الجاهليين في فنون القول، والذين تحداهم النبي ﷺ بالقرآن الكريم: (معلوم أن سبيل الكلام سبيل

---

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي) جـ ٤/ ص ٦٦٦/ الحديث رقم (٢٥١٤)/ تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون/ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي جـ ٥/ ص ٤٣٣/ الحديث رقم (٣٣٣٣).

ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضاً، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيــه للعرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر عنهم فيه.

وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمن النبي ــ صلى الله عليه وسلم الذي نزل فيه الوحي، وكان فيه التحدي، أنهم زادوا على أولئك الأولين، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيه ما لم يكملوا لــه... والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى، أو ينكره جاهل أو معاند)

وإذا نظرنا في دلائل أحوال العرب الذين نزل فيهم القرآن، وفي أقوالهم حين تلي عليهم، وتحدوا بأن يأتوا بمثله، وجدنا أحوالهم، وأقوالهم تفــصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته، والإتيان بمثلــه، ولــم تحــدِّثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه.) [١]

وأهل هذا العصر كانوا بين مبدعين في فنون القول ومتذوقين جيــدين لهذا الإبداع ذلك أن البلاغة – كما نص المحققون مــن البلاغيــين – فــي الفهم، والتذوق كما تكون في النطق، والإفهام، وأن الآخذ عنك شريك لك في الذي تقول وتكتب... وأن البلاغة لا تتوفر لهــا الحيــاة بمبــدعين جيــدين فحسب، وإنما لابد لها من جمهور من المتذوقين، يعرفــون للكــلام حقــه، وينفذون إلي لبه وسره والمغزى منه، وأن الكــلام العــالي إذا علــق فــي الهواء، ولم يجد قلوبا يَقَرُّ فيها، وتعالجه، وتدارسه يصير إلــي مــضيعة. وهذا يوجب أن تكون العناية بتربية القدرة على الفهم، والتحليل، والتــذوق عِدلَ تربية القدرة على الإبداع، والإنشاء، والابتكار [٢]

وانطلاقاً من رأي الإمام ندور بهذه الدراســة حــول عوامــل ســيطرة الأسلوب في حديث النبي ﷺ الذي هو ذروة البيان البــشري، وفــي أفــصح الشعر لاسيما أصحاب المعلقات لما لها مــن خــصائص فنيــة، وعبقريــة

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز, عبد القاهر الجرجاني/ ص١٧٦/ تحقيق محمود شاكر/ مكتبة الخانجي القاهرة ١٤٠٤هـ.

(٢) ينظر مراجعات في أصول الدرس البلاغي د/ محمد محمد أبو موســى/ ص: ٥٩. الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م مكتبة وهبة.

شخصية في أصحابها جعلتها تحظى بالصدارة وتتربع على عرش البيان العربي في أزهى عصوره في العصر الجاهلي.

ويهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١-الكشف عن نوعية من الأساليب ذات تأثير فريد تخطت مرحلة البلاغة إلى مرحلة الإبداع المسيطر على حواس المتلقين.

٢-محاولة رصد وتحديد ما أمكن من عناصر تميز الأسلوب وسيطرته.

٣-إلقاء الضوء على نقاط البراعة وسمات العبقرية في هذه الأساليب، وكيفية تصرف العبقري فيها.

٤-وضع هذه النوعية المتميزة من الأساليب بين يدي الدارسين والباحثين حتى يستفيدوا منها، وهي أيضًا محققة لرغبة الباحث عن المتعة الفنية في الأساليب البيانية.

٥-عرض جانب من الأحاديث النبوية للفائدة العامة، والفائدة الخاصة لباحث البلاغة العالية في ذروة سنامها البشري، وما يليها في الرتبة من فصيح الأشعار.

<u>خطة البحث</u>

المقدمة.

التمهيد:

حقيقة الأسلوب.

المقصود بالأسلوب المسيطر.

خطة البحث.

<u>المبحث الأول:</u>

(أساليب التشويق – أساليب القسم –أساليب التعجب) من عوامل سيطرة الأسلوب.

- أساليب التشويق.
- أساليب القسم.
- أساليب التعجب.

المبحث الثاني:

(المعاني الطريفة – خطاب الوجدان – الرثاء – التشبيب– عبقريـــة الصورة) من عوامل سيطرة الأسلوب

- **المعاني الطريفة.**
- **خطاب الوجدان.**
- **الرثاء.**
- **التشبيب.**
- **عبقرية الصورة.**

المبحث الثالث:

(القصة – الحوار – التكرار – قوة الفكرة – مراعاة الجوانب النفسية) من عوامل سيطرة الأسلوب

- **القصة.**
- **الحوار.**
- **التكرار.**
- **قوة الفكرة.**
- **مراعاة الجوانب النفسية**

المبحث الرابع:

(ألوان من البديع) من عوامل سيطرة الأسلوب

الخاتمة.

الفهارس.

التمهيد

حقيقة الأسلوب.

تدور دلالة كلمة (أسلوب) في اللغة حول معنيين معنى حسي هو: السطر من النخيل، وكل طريق ممتد , ومعنى معنوي، وهو الطريق والمذهب , والجمع أساليب ([1]).

وقد عرَّف عبد القاهر الجرجاني الأسلوب بأنه: " الضرب من النظم، والطريقة فيه "([2])

فالأسلوب هو الرجل بمعنى أنه سمة شخصية لا يمكن أخذه، ولا نقله، ولا تبديله، وهذه الشخصية تصطبغ بصبغة صاحبها وتتأثر بصفاته في جسمه وعقله، وتبدو متراوحة بين الظهور والخفاء، وعلى ذلك فالأسلوب يختلف باختلاف الأشخاص على كثرتهم.

وقد سميت أنواع من الأساليب باسم مؤلفين معينين (أسلوب بديع الزمان الهمذاني، أسلوب الجاحظ) أو باسم فترات (الأسلوب الجاهلي، الأسلوب العباسي، أسلوب عصر النهضة. الأسلوب الحديث)، أو باسم مجالات (أسلوب علمي، أسلوب صحفي، أسلوب شعري) أو باسم مدارس فنية (الأسلوب الواقعي الأسلوب الكلاسيكي وغيرها.

المقصود بالأسلوب المسيطر.

الأسلوب المسيطر هو ذلك الأسلوب الذي اشتمل على عناصر خاصة تسيطر على حواس المتلقي الفاعلة، وقواه المتصرفة بحيث يتابع المبدع حتى يتقرر المعنى المراد مع تحقيق الاستجابة المطلوبة التي يهدف إليها في جمال، وروعة تترك أثرها على المدى الطويل في وجدان المتلقي وعقله.

وسيطرة الأسلوب حالة تعتري الفهم عندما يبلغ أثر التعبير في نفسه مبلغاً يفجر طاقاته الخلاقة، ويشعل وجدانه بسيل من المشاعر المتدفقة

---

(١) لسان العرب لابن منظور/ ص٢٢٥/ دار صادر ,بيروت,ط ١ , ٢٠٠٠م , مادة(سلب).

(٢) دلائل الإعجاز, عبد القاهر الجرجاني/ ص٤٦٩/ تحقيق محمود شاكر/ مكتبة الخانجي القاهرة ١٤٠٤هـ.

وحالة من النشوى، ووابل من الأريحية وسرور يخامر نفسه طالما حلَّق في المعنى الخلَّاب والأسلوب الجذَّاب الذي استطاع أن يخلصه لنفــسه بعــد أن قطعه عن شواغله المحيطة.

فيصير معه إلى حالة أشبه بالحلم بما يتركه حسن الصياغة، والتنــاغم في نفس المخاطب من أثر يملك عليه وجدانه، بعد أن تستلذه نفسه، ويتملاه عقله فيرى فيه آية العبقرية، وجلال الفن، وجماله، ثم يخرجــه مــن تلــك الحالة ليعيده بما قرَّ في وجدانه وهو لا يريد أن يخرج، ويتمنى لو عاد.

وقد كان العربي يسمع الشعر يبلغ به مبلغًا عظيماً في الإعجاب ويطرب منه، ويهش له، ويبش، ولا يعنيه البحث عن ســر هــذا الإبــداع ليفــصِّل أسبابه، ويكشف عناصره، وربما نسب سر العبقرية بضرب من الخيال لمــا يتصوره عقله كأن يدعي أن لهذا الشاعر شيطاناً يملي له.

وقد حفلت كثير من القصص بما يعزز هذا التوجه من ذلــك مــا نقــل صاحب الجمهرة قال: قال: (ابن المروزي: حدثني أبي قال: خرجــت علــى بعير لي صعبٍ، فيمر بي لا يملكني من أمر نفسي شيئاً، حتــى مــر علــى جماعة ظباءٍ في سفح جبل على قنته رجلٌ عليه أطمارٌ لــه، فلمــا رأتنــي الظباء هربت، فقال: ما أردت بما صنعت؟ إنكم لتعرضون بمــن لــو شــاء قدعكم عن ذلك، قال: فدخلني عليه من الغيظ ما لم أقدر أن أحمله، فقلــت: إن تفعل بي ذلك لا أرضى لك، فضحك، ثم قال: امض عافاك الله لبالك، قال: فجعلت أردد البعير في مراعي الظباء لأغضبه، فنهض وهو يقول: إنك لجليد القلب! ثم أتاني فصاح ببعيري صيحة فضرب بجرانه الأرض، ووثبت عنــه إلى الأرض، وعلمت أنه جان، فقلت: أيها الشيخ! إنك لأسوأ مني صــنيعاً. فقال: بل أنت أظلم وألأم، بدأت بالظلم ثم لؤمت في تركك المــضي، فقلــت: أجل! عرفت خطئي. قال: فاذكر الله فقد رُعْناك، وبذكر الله تطمئن القلــوب، فذكرت الله تعالى، ثم قلت دهشاً: أتروي من أشعار العرب شيئاً؟ فقال: نعم ! أروي وأقول قولاً فائقاً مبرزاً. فقلت: فارو من قولك ما أحببت، فأنشأ يقــول (البسيط):

طافَ الخيالُ علَينــا لَيلــةَ الــوادي من آلِ سَلمى ولــم يُلمِــمْ بميْعــادِ

أنّى اهتَديتَ إلى مَـن طـالَ لَـيلُهُمُ ... في سَبَـسبٍ ذاتِ دَكْـدَاكٍ وأعقـادِ
يُكَلَّفُـونَ فَلاهـا كـلَّ يَعْمَلَـةٍ ... مثلَ المَهاةِ، إذا ما حَثَّهـا الحـادي
أبلِـغْ أبـا كَـرَبٍ عنّـي وأسْـرَتَهُ ... قولاً سَيَذهَبُ غَـوراً بعـدَ إنجـادِ
يا عَمْـروُ مـا رَاحَ مـن قَـوْمٍ ولا ... إلا وللموْتِ فـي آثـارِهِمْ حَـادي
يا عَمْروُ ما طلعت شمسٌ ولا غَرَبَتْ ... إلا تَقـرَّب آجـالٌ لميعـادِ
هل نحـن إلا كـأرْواح تَمُـرُّ بهـا ... تحت التـرابِ وأجـسادٍ كأجـسادِ
فـإن رأيـت بـوادٍ حيـةً ذكـراً ... فامضِ وَدَعْني أمارس حيَّة الوَادي
لا أعرفَنَّـكَ بَعْـدَ اليَـومِ تَنـدُبُني ... وفي حَيـاتيَ مـا زَوَّدْتَنـي زادي
أمَّا حِمامُـكَ يومـاً أنـتَ مُدركُـهُ ... لا حاضرٌ مُفلِتٌ منهُ، ولا بادِي (١)

فلما فرغ من إنشاده قلت: لهذا الشعر أشهر في معد بن عدنان من ولد الفرس الأبلق في الدهم العراب، هذا لعبيد بن الأبرص الأسدي، فقال: ومـن عبيد لولا هبيد! فقلت: ومن هبيد؟ فأنشأ يقول: (المتقارب)

أنا ابـنُ الـصّلادِمِ أدعـى الهبيـدَ ... حبَـوتُ القـوافيَ قرْمَـيْ أسَـدْ
عَبيـداً حَبَـوتُ بمـأثُورَةٍ ... وأنْطقْتُ بـشراً علـى غَيـر كَـدّ
ولاقَـى بمُـدركَ رَهـطُ الكُمَيـتِ ... مَـلاذاً عَزيـزاً ومَجـداً وَجَـدّ
مَنحانـاهُمُ الـشِّعرَ عـن قُـدرَةٍ ... فهَـل تَـشْكُرُ اليَـومَ هـذا مَعَـدّ

فقلت: أما عن نفسك فقد أخبرتني، فأخبرني عن مـدرك، فقـال: هـو مدرك بن واغم، صاحب الكميت، وهو ابن عمي، وكان الصلادم وواغم مـن أشعر الجن، ثم قال: لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا؟ فقلت: هات، أريد الأنـس به، فذهب فأتاني بعسٍّ فيه لبن ظبي، فكرهته لزهومته فقلت: إليك، ومججت ما كان في فمي منه، فأخذه ثـم قـال: امـض راشـداً مـصاحباً! فوليـت منصرفاً،فصاح بي من خلفي: أما إنك لو كرعت في بطنك العس لأصـبحت أشعر قومك. قال أبي: فندمت أن لا أكون كرعت عسه في جوفي علـى مـا كان من زهومته، وأنشأت أقول في طريقي (الطويل):

(١) ديوان عبيد الأبرص/ ٥٥ ت/ أشرف أحمد غدرة/ الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م دار الكتاب العربي– بيروت.

أسِفتُ على عُسِّ الهَبيــدِ وشُــربِهِ لَقــدْ حَرَمَتْنيــهِ صُــرُوفُ المَقــادِرِ
ولــو أنَّنــي إذْ ذاك كنــتُ شَــربتُهُ لأصْبَحتُ في قوميْ لَهم خيــرَ شــاعر (١)

ومثل هذه القصص كانت تنسج عادة حول الشعراء الــذين يتميــزون بعبقرية خاصة، وإبداع يذهل المتلقين فيختلفون في ســر هــذه العبقريــة، وسبب هذا الإبداع، فيفسرونها بتفسيرات مختلفة بعضها بعيد عن الواقــع، ولكنها في النهاية تعكس شدة إعجاب الناس بهذا الشاعر، وسيطرة أسلوبه الذي فعل بهم هذا الفعل وذهب بهم في الأريحية كل مذهب.

تلك العبقرية، وذلك الأسلوب المسيطر هو ما تسعى الدراسة إليه بحثًــا عن أسباب السيطرة، ونقاط التميز إن كان في اختيار المعاني، أو في البنية التكوينية، ودلالات التراكيب، وعبقرية التصوير، أو غيرها.

وإذا تأملنا حديث النبي ﷺ وما يتلوه من الأساليب الفــصيحة نجــد أن أساليب التشويق، والافتنان فيها من أكثر الوسائل التي اســتخدمها عبــاقرة البيان للتأثير والسيطرة على حواس المخاطبين الفاعلة، وقواهم المتصرفة.

المبحث الأول

أساليب (التشويق – القسم – التعجب) من عوامل سيطرة الأسلوب.

أولًا: أساليب التشويق.

أساليب التشويق من أكثر عناصر سيطرة الأسلوب انتشاراً في الحديث النبوي، وفي كلام البلغاء، وقد تفنن في إبداعها الشعراء والخطبــاء وكــل أصحاب فنون القول.

وهي تبرز عبقرية صاحبها خلال تحقيقها وحسن توظيفها في مــساحة النص بحيث يتحقق الغرض منها على الوجه الأمثل.

وهذه الأساليب التشويقية يتحكم في تشكيلها وتنويعها ودرجة تكثيفهــا في الحديث النبوي عدة عوامل منها:ــ

١) حال المخاطبين من ناحية تنبههم واستعدادهم لتلقى الخبر وتنفيذه.

(١) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية، والإسلام/ المؤلف: أبو زيد القرشي جــ: ٢ ص: ٤٧: ٤٩ – ت محمد على البيجاوي – طبعة نهضة مصر – سنة ١٩٨١.

٢) مدى أهمية الخبر وغفلة الناس عنه.

٣) توفير درجة معينة من الإثارة، والتشويق تتساوق مع أهمية الخبر.

٤) تحقيق الإنصات اللازم للتبليغ مع ربط المخاطب قلبًا وعقلًا بالمتحدث لضمان متابعته للخبر حتى النهاية ووضعه في نفسه موضعًا لا ينفك عنه؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ في أساليبه يخاطب القلب أحيانًا،ويخاطب العقل أحيانًا.

فمن أساليبه في التشويق التي داعب فيها الوجدان، وسيطر على حواس المخاطبين بها في سياق ممتع دقيق بلغ القمة درجة درجة ما جاء [عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّه عَنْه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ الله عنه مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ] رواه ابن ماجة(١).

وتبدو خاصية سيطرة الأسلوب في الحديث فيما تظهر في هذا التدرج العبقري في رغائب النفوس الحريصة على تحصيل كل خير درجة درجة تزيد معها درجة السيطرة في الأسلوب بزيادة الشوق إلى المعنى المنتظر من وراء الحوار.

وإذا نظرنا إلى أسلوب الرسول ﷺ نظرة تحليلية من بدايته بحثًا عن أسباب سيطرة الأسلوب نجد أنه صدَّر كلامه بالأداة (ألا) في قوله: (ألا أنبئكم) للعرض. واكتسب الأسلوب تشويقه من بقية السياق حيث تلا (ألا) بالفعل (أنبئكم) الذي يدعم التشويق بصيغته، كما يصعِّده بمتعلقاته.

واستعمال هذه الأداة – في الأغلب مع هذا الفعل وأمثاله – كـ (أخبركم، أعلمكم، وأدلكم) تمهيد لشيء. خطير.

ثم زاد الأسلوب سيطرة، وبدأ في رفع درجة التشويق شيئًا فشيئًا ؛ بالجار والمجرور وما أضيف إليه فقال: (بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ

(١) سنن ابن ماجه جـ ٢ صـ ١٢٤٥ حديث (٣٧٩٠).

وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ.....) فصعَّد التشويق بعبارات أثارت فــضول النفــوس المجبولة على حب الخيرات وزادها حرصًا بأفعل التفضيل متصدرةً كل عبارة (خير أعمالكم، خير لكم.. أزكاها، أرفعها) كل ذلك بعد أداة (العــرض) (ألا) يليها الفعل (أنبئ) الذي يتصدر الأمر العظيم والخبر الصادق كما قــرر أبــو السعود[١]،وأكده الدكتور صباح عبيد دراز[٢].

(وفائدة السؤال والجواب أن يكون الكلام أوقع في النفس بحكم الإبهــام والتبيين)[٣]

ولعل الذي حدا بالرسول ﷺ إلى كل هذه الإثارة للخبر، والتشويق إليه، وبعث الاهتمام به، والترقب له هو: غفلة الناس عن هذا العمل مع أهميتــه، وشدة حاجة الإنسان إليه مع يسره، وخفة مؤنته، وقدرة جميع الناس علــى القيام به.

كما أنه عبادة قلبية لا يتعلق بها العجب، ولا الرياء، مع سهولة ملازمة الإنسان له على كل حال مما يثمر اتصال الإنسان الدائم بربه، وبقــاءه فــي حضرته.

هذا ما جعل الرسول ﷺ يؤكد، ويشوق بهذا الإلحاح الشديد على فضل الذكر والتنبيه إليه ؛ ليصرف أعنة القلوب عبر معارج النجاح إلى مــواطن الفلاح.

قريب من هذه الطريقة في سيطرة الأسلوب بالتشويق والإثارة والتنبيه إلى فضل الخبر ما جاء في الحديث: (قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّــةَ

---

(١) ينظر تفسير أبي مسعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القــرآن الكــريم لأبــي السعود العمادي (ت ٩٥١ هــ)ج ٣ صـــ ٥٤ الطبعة الرابعــة ســنة ١٤١٤ هــ سنة ١٩٩٤ م ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم د صــباح عبيــد دراز صـــ ٧ – ٩.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للمباركفورى ج١ صـــ ١٤١ حــديث (٥١) ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هــ.

حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ] رواه مسلم(١) والترمذي(٢)

في هذا الحديث سلك النبي ﷺ طريقة مختلفة نوعا ما في أسلوب التشويق عن سابقه ذلك أنه هنا افترض عقدة (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا) ثم افترض لحلها فرضا (و لا تؤمنوا حتى تحابوا) ثم طرح استفهامه التشويقي عرضا للحل بعد أن تدرَّج بأفهامهم من نقطة إلى نقطة بأسلوب منطقي يصل به إلى الإجابة عن الاستفهام دون انتظار رد منهم لثقته بأنه ارتقي بهم درجات الترقب حتى وصل أعلاها.

ثم تلا ذلك بوسيلة إيضاح حسية تلي الاستفهام التشويقي (.... وقد قرر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأمور مقارنة لها في الفكر تجعله أبقي على الزمن، وأثبت في النفس)(٣)

من ذلك: (قال النَّبِيُّ ﷺ هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ وَمَا هَذِهِ وَرَمَى بِحَصَاتَيْنِ قالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قالَ هَذَا الْأَمَلُ وَهَذَاكَ الْأَجَلُ] رواه الترمذي(٤)

فقد استخدم النبي ﷺ وسيلة إيضاح حسية جذبت الانتباه بعد أن سبقها بالاستفهام تنبيهًا وتشويقًا عن الممثل المجهول زيادة في التشويق إلى طلبه، ثم أشار للحصاة القريبة، وقال:(هذا الأمل) وللبعيدة وقال:(هذاك الأجل).

وتبدو دقة الأسلوب النبوي في اختيار لفظي الإشارة مطابقين للبعد المسافي(هذا)للأمل،(وهذاك) للأجل.

وتبدو رقة أسلوبه في استخدام إشارة القريب للأمل لشدة وعى المخاطب له، وتمثله حاضراً دائمًا، وإضافة كاف الخطاب للأجل مطابقة لعدم التنبه لغياب صورته في زحمة الآمال.

---

(١) صحيح مسلم كتاب (الإيمان) باب: (بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب حصولها).

(٢) سنن الترمذي كتاب (الاستئذان) باب (١) حديث (٢٦٨٨).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد الحميد الزرقاني – جـ ١ صـ ٣٠١.

(٤) سنن الترمذي كتاب الامثال باب (٧) حديث (٢٨٧٠)

والنبي بذلك يصور لنا سعة خيال الإنسان حتى تـــضل الحقيقـــة فـــي متاهته وهيامه بالآمال الشاردة والموت أدنى من شراك نعله [1]

ومن أساليبه في بناء الأسلوب المسيطر بالتـــشويق أيـــضاً أن يـــسبق الاستفهام بسلوك غير مفسر ثم يتبعه باستفهام يفسره من ذلك ما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَـــالَ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي قَـــالَ فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَـــالَ فَيُخْـــتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قَالَ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَـــهُ وَبَـــيْنَ الْكَلَامِ قَالَ فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا[2] فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ]رواه مسلم[3]

والحديث نموذج عبقري لسيطرة الأسلوب بأبسط طرق التعبير حيث بدأ النبي ﷺ بسلوك مفاجئ هو الضحك دون أن يعلم الـــصحابة – رضـــي الله عنهم – سببه.

ثم سألهم بعد يقظتهم إليه عن أمر يجهلونـــه زيـــادة فـــي التـــشويق، واستحضارًا للقلوب، وهم أعقل من أن يجيبوا بما لم يعلمـــوا إذ هـــو أمـــر مرجعه إليه.

وهو يحدثهم عن قصة إنسان يوم الهول الأعظم. هي: في الحقيقـــة – قصة كل واحد منهم في موقف الحساب وهو ما يزيدهم ارتباطًا بالأسلوب.

فكان لزامًا عليه ﷺ من باب حرصه على سلامتهم من هول الموقـــف أن يُعدَّ تربة قلوبهم لتستقبل بذور الموعظة عن الغيب المرتقب.

وهذا ما كفله له من البداية أسلوبه في التـــشويق بالفعـــل المفـــاجئ وصعده باستفهام التشويق حتى بلغ بهم ذروة اليقظة، والترقب.

---

(١) ينظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د عز الدين على السيد صـــ ٣٥٣ ط المؤلف سنة ١٣٩٣ هـــ سنة ١٩٧٣ م

(٢) (سحقا) السحق البعد (ينظر مقاييس اللغة لابن فارس جـــ ٣ صـــ ١٣٩ مـــادة (سحق))

(٣) صحيح مسلم جـــ ٤ صـــ ٢٣٨١ كتاب (الزهد والرقائق) حديث (١٧)

ومن الأساليب المسيطرة ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عنه – قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ] رواه مسلم(١)

وأسلوب النبي ﷺ من بدايته بأفعاله وأقواله تشويق للخبر وإثارة لمواطن الفضول يحقق سيطرة الأسلوب ويضمن متابعة المخاطب حتى يتقرر المعنى، ومدلول كلامه افتخار بفضل الله على الأمة المحمدية إعظامًا للمنة، وبيانًا لفضل الله.

والاستفهام الذي أرصد له النبي ﷺ بهذا الخبر تشويقًا لهم، وإمهالًا لمواطن الأفهام، لتستعد وتتيقظ لاستقبال ما سيقال حتى يقع منها على ظمأ جاء في خير موضع لأداء الغرض بإشعال جذوة الترقب.

ومن أساليبه ﷺ في التشويق التي تحقق سيطرة الأسلوب تقديم لافته قصيرة تعجل بالحكم يليها ترغيب في أمر أو ترهيب منه من ذلك ما رواه حَارِثَةُ بْنُ وَهْبٍ الْخُزَاعِيُّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا بَلَى قَالَ ﷺ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ قَالُوا بَلَى قَالَ كُلُّ عُتُلٍّ(٢) جَوَّاظٍ (٣) مُسْتَكْبِرٍ] رواه مسلم(٤).

تتمثل خاصية سيطرة الأسلوب في هذا الحديث في لافتتين قصيرتين يتصدر كل منهما أداة العرض (ألا) اللافتة الأولى: للترغيب، والتبشير بالجنة لكي ينبذ الإنسان أخلاق المتكبرين، والمتجبرين، ويعطف على الفقراء والمساكين، وينظر إليهم خلال المكانة التي لهم عند الله في الآخرة بأنهم أهل الجنة، وفي الدنيا بأن أحدهم لو أقسم على الله لأبره.

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ صـ ١٨٤ كتاب (الإيمان) حديث (٣٢٧)

(٢) (عتل) العتل: هو الجاف الغليظ. ينظر لسان العرب جـ ٤ صـ ٢٨٠١ ومقاييس اللغة جـ ٤ صـ ٢٢٣ مادة (عتل).

(٣) (جواظ) الجواظ: هو المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، وقيل: الجموع المنوع.

(٤) صحيح مسلم كتاب:(الجنة وصفة نعيمها وأهلها) حديث (٤٧).

تلك جملة التشويق الأولى بلافتتها، وضعت – جملــة – أمــام لافتــه معاكسة لها (ألا أخبركم بأهل النار، وصاحبها (كل عتل جواظ مستكبر) وكما قيل –الضد يظهر حسنه الضد – وهذه إحدى طرق النبي ﷺ العاليــة فــي توضيح المعنى بوضع الضد بجوار الضد، ليظهــر حُــسن الحَــسن بجــوار القبيح. وقبح القبيح بجوار الحسن، وهو من براعة المقابلة النبوية.

وانظر إلى معنى لفظ (العتل – الجواظ) – وتأمل معناهما – إذ تحكــى كلمة (الجواظ) ثقلاً غير متناهٍ يحكى جسامة الموصوف ؛ والثقل والطول في اللفظ يصور الثقل وامتداده في الموصوف.

وجاءت كلمة الجوَّاظ على صيغة المبالغة مضعف العين مختوما بالظاء التي ينتهي لديها إفراط الغلظ فحكت اللفظة معنى الذات وصورتها [(١)].

وقد تمثلت خاصية السيطرة البيانية في بعض الأحاديث النبويــة فــي تتابع أكثر من أسلوب إنشائي مع الاستفهام – عرضا وتشويقا –، وغيــره من الأساليب ؛ ليعطي كل أسلوب دفقة خاصة من المشاعر تبلغ بالمخاطبين إلى أعلى درجات الترقب والانتظار.

من ذلك ما ورد عَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْــدِ الْمُطَّلِبِ يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّاهُ أَلَا أُعْطِيكَ أَلَا أَمْنَحُكَ أَلَا أَحْبُوكَ أَلَا أَفْعَلُ لَكَ عَــشْرَ خِصَالٍ إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ عَشْرَ خِصَالٍ أَنْ تُصَلِّيَ أَرْبَــعَ رَكَعَــاتٍ تَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةً.....] ابن ماجة[(٢)].

والحديث ترغيب في صلاة التسابيح يوضح قيمة هذه الصلاة وإحاطتها للذنوب بالمغفرة مهما كانت.

وقد تمثلت سيطرة الأسلوب في تعدد الأساليب الإنشائية، وتتابعها فــي سياق التشويق عناية بالأمر بداية من ندائه ﷺ بقوله (يــا عبــاس) نــداء

(١) ينظر في هذا الموضوع باب:(امساس الألفاظ أشــباه المعــاني) مــن كتــاب الخصائص لابن جني (أبي الفتح عثمان بن جني) جـــ ٢ صـــ ١٥٢ ت محمد على النجار ط المكتبة العلمية. بدون.

(٢) سنن ابن ماجه جـــ ١ صـــ ٤٤٢ حديث (١٣٨٦).

تخصيص وتنبيه ثم ندائه (يا عماه) نداء تعظيم، وتشريف حيث ذكر علاقة الدم، والنسب في ندائه إشارة إلى استحقاقه بالعطية الآتية).

وقوله (ألا أعطيك) عرض للعطاء،وقوله (ألا أمنحك) تشويق للعطاء. يجعل النفوس تتطلع إلى الخبر وتترقبه (وألا أحبوك) الكلمة توحي بتخصيص العطاء أي أخصك العطاء وحباه العطاء وبالعطاء [١] ففيه زيادة تكريم وتخصيص.

وقوله (ألا افعل لك عشر خصال). وعشر خصال قيل هي:(مغفرة الذنوب التي أخبر عنها من قوله (أوله وأخره) إلى قوله (سره وعلانيته) وقيل بل هي التسبيحات التي في الصلاة دون القيام فهي – عشر عشر، فهو على حذف مضاف أي (ألا أعطيك مكفر عشرة أنواع ذنوب؟)[٢]

وتتميز طريقة السيطرة بأسلوب التشويق في حديث الرسول ﷺ بخاصية التتابع الفريد حيث توالت فيه أساليب الإنشاء بالاستفهام عرضًا وتشويقًا مسبوقا بالنداء تنبيهًا وتخصيصًا وتعظيمًا.

ففي كل مرة كرر فيها النبي ﷺ الأداة (ألا) كان يرتقي باليقظة والترقب درجة على سلم الوجدان حتى يبعث في نفس المخاطب شوقا وعنايةً تحيط بعبارات الخبر بل بكلماته وحروفه ؛ حتى تبقي في سمعه ما بقيت في سامع روحه يتذكر عناية النبي ﷺ بالأمر وحرصه متمثلا في أداة الطرق (ألا) تقدم كل عبارة وتحدوها مع ما يتبعها من تصعيد للمعاني بباقة متناسقة من أروع الأساليب.

ومن أساليبه ﷺ في التشويق التي تحقق سيطرة الأسلوب أن يبدأ بالاستفهام عرضًا تتبعه بعض الجمل تشويقًا ثم يختم الحديث بتكرار جملة تبين قيمة العمل وفضله.

من ذلك ما جاء عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ قالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قالَ إِسْبَاغُ

(١) ينظر أساس البلاغة – للزمخشري – جـ ١ صـ ١٥١

(٢) ينظر صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري – تحقيق محمد ناصر الدين الألباني جـ ١ صـ ٢٨١ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ سنة ١٩٨٢ م.

الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ] رواه مسلم(١).

بدأ النبي ﷺ بأداة العرض (ألا) تلاها التصوير الكنائي في قوله ﷺ (....ما يمحو الله به الخطايا) قال القاضي عياض: محو الخطايا كناية عن غفرانها قال: ويحتمل محوها من كتاب الحفظة ويكون دليلا على غفرانها ورفع الدرجات إعلاء المنازل في الجنة)(٢).

وأصل الرباط الحبس ومنه رباط الخيل حبسها واقتناؤها ورابط الجيش: أقام في الثغر والأصل أن يربط هؤلاء وهؤلاء خيلهم، ثم سمي الإقامة في الثغر مرابطة ورباط)(٣).

والإشارة في قوله (فذلكم الرباط) تدل على التفخيم وزيادة الميم زيادة في التنبيه إلى أن الإشارة إليهم هم.

ثم وقوع اسم الإشارة مسندا إليه والمسند (الرباط) معرف باللام، ليفيد قصره عليهم، وكأنه يقول: لا رباط إلا ذلكم المشار إليه لكمال معنى الرباط فيه، وألا يتوهم المبالغة في الإخبار عنه بهذا الخبر مع ما للجهاد المسلح من الفضل، فقطع بتكرار العبارة كل وهم وأكد المعنى تأكيدًا لا شك فيه(٤).

ولعل سر هذا الفضل يرجع إلى أن هذه الأمور رباط دائم للإنسان في أجزاء اليوم والليلة ورباط الجيوش في وقت معين، ورباط الصلاة لمحاربة عدو خفي هو الشيطان، وهوى النفس، ورباط الجيش لقتال عدو ظاهر، ولا شك أن قتال العدو الظاهر أيسر، ورباط الجيوش فرض كفاية، ورباط الصلاة فرض عين.

ومن هنا كانت عناية النبي ﷺ بأسلوبه التشويقي الذي هيأ القلوب لاستقبال الأمر بداية بالاستفهام عرضًا وتشويقًا، ومرورًا بعبارات التشويق (يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات) وانتهاء بتكرار جملة التفصيل

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢١٩ كتاب (الطهارة) (٤١)

(٢) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي المجلد الأول جـ ٢ ط ١ صـ ١٤١ ط دار الريان للتراث.

(٣) أساس البلاغة للزمخشري – جـ ١ صـ ٣١٦.

(٤) ينظر فوائد التكرار في معترك الأقران للسيوطي جـ ١ صـ ٣٤١.

(فذلكم الرباط، فذلكم الرباط) توكيدًا لفظيًا ومعنويًا يفيد – كما تقدم – نفي المبالغة [١]

ومن أجمل أساليبه ﷺ في المسيطرة بالتشويق التي جمعت بين تناسق الأساليب البلاغية والتصوير البديع بالحركة واللون وكل عناصر الصورة.

ما روى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ: (أَلَا هَل مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ فِي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ قَالُوا نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ] رواه ابن ماجه[٢].

تتمثل خاصية سيطرة الأسلوب في هذا الحديث في التناسق البديع بين الألوان البلاغية مع عبقرية التصوير والنسج إضافة إلى طرافة المعاني الغيبية التي لا يتحدث بها إلا نبي مع حسن الابتداء، وحسن الانتهاء حيث بدأ النبي ﷺ حديثه بطرق الأسماع بحرف التنبيه (ألا) ثم تلاه بالاستفهام بـ (هل) وهو ليس على حقيقته ؛ لأنهم جميعا مشمرون للجنة، وإنما هو عرض، وتشويق يفتح أبواب القلوب والعقول بتمام الاستشراف للمعنى.

وجملة (فإن الجنة لا خطر لها) ربط الجملة بسابقتها بالفاء وأكدها بإن تنزيلًا لهم منزلة المنكر للحكم المتردد فيه لأنه ﷺ لما جاء في صدر كلامه بأسلوب الاستفهام عرضًا للتشمير للجنة – استشرقت النفوس إلى معرفة السبب فأردف بـ(إن)[٣]

ثم ذكر (الجنة) بالاسم الظاهر ؛ لتكون الفائدة أتم باستحضار صورتها في ذهن السامع ابتداءً إضافة إلى أنها من الألفاظ الموحية بطبيعتها بالسرور والحبور والمتاع الخالد الكامل.

---

(١) ينظر شرح الحديث في تحفة الأحوذي جـ ١ صـ ١٤١: ١٤٢ حديث (٥١)
(٢) سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٤٤٨ حديث (٤٣٣٢)
(٣) ينظر خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) د – محمد أبو موسي ط ٤ سنة ١٤١٦ هـ سنة ١٩٩٦ م مكتبة وهبه.

وجملة (هي ورب الكعبة) ذكر ضمير المسند إليه لأن المقام مقام غيبة وقد سبق ذكر المسند إليه لزيادة التقرير، والتأكيد مع الإشادة، والتعظيم.

ثم زادها تأكيداً بالقسم (ورب الكعبة) وذكر كلمة (رب) لأنـــه الأقـــرب للرعاية والعناية وأضافها (للكعبة) لما لها من منزلة في نفوس القوم.

ثم بدأ ﷺ برسم مشاهد الصورة المتحركة (نور يتلألأ) وتلألأ النور إما لتعدد مصادره أو لقوة مصدر الإضاءة وهو شيء غير معهود عند العـــرب لأنهم لا يعرفون إلا نور الشمس، والقمر، ومصابيحهم لا طاقة لهـــا لتلألـــؤ النور.

ثم جاء بمشهدٍ آخر في الصورة المتحركة وهو (وريحانة تهتز) دلـــيلاً على تحرك النسيم المعطر بريح الريحان ومن مشاهد الـــصورة المتحركـــة أيضاً (نهر مطرد) والمطرد متتابع الجريان يجري في غير أخدود كما ذكرت بعض الروايات.

ثم ذكر عناصر الصورة الثابتة (وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ فِي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ).

ووصف الزوجة بالجمال بعد الحسن ليستوعب صفات الحسن النفـــسية وصفات الجمال الظاهرية، وكذلك كل موصوف ألحق به صفة ؛ ليوحي مـــن خلالها معاني جانبية أخرى.

فقد وصف النور بالتلألؤ إشارة إلى حركة الضياء المـــضطربة والتـــي تملأ كل أرجاء المكان المضاء، ووصف الريحانة بالاهتزاز إشارة إلى النسيم العليل المعطر الذي يحركها باعثاً لعطرها ووصفه القصر بالإشادة: إشـــارة إلى سابق تشييده وأنه معد من قبل الله لضيوفه وما أدراك ما قـــصر شـــيده الله !!.

ووصف النهر بالاطراد إشارة إلى صفاء مائه بعدم الوقوف وعذوبتـــه ووصفه المقام بالخلود ؛ لكي ينفي الحزن عن هذا النعيم بتذكر الفناء الـــذي يكدر صفو الحياة.

حتى إذا تمت الصورة واكتمل البيان وحلق معه الصحابة بأفئدتهم وحواسهم الخاشعة وما إن أنهى ﷺ حديثه ووصفه حتى قال القوم:(نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها).

وهنا نرى أثر سيطرة الأسلوب من بدايته إلى نهايته بدأت بأداة الاستفهام في بداية الحديث (ألا هل مشمر للجنة؟...) وسرت من أول المعنى بإيقاظ الأفئدة، واستمرت تحدو الأسماع حتى أتم النبي ﷺ المعنى المراد وجاءت في نهاية الحديث الإجابة عليها بكل لهفة من الصحابة ؛ لتدل على مدى سيطرة النبي ﷺ بسحر بيانه على الأفئدة وهذا ما نود أن نشير إليه ونؤكده.

وهو أن لأسلوب النبي سحر بياني مسيطر تؤديه العبارة جزئيًا، ويستمر حتى الوفاء بالمعنى العام، ولا ينتهي بنهاية العبارة،بل يستمر فيما بين المعاني استمرارا خفياً كالخيط الدقيق الذي يمر بين حبات اللؤلؤ وبه تنتظم.

وهذا ما يؤديه التناسق البديع بين ألوان البلاغة دائما في الحديث النبوي الشريف فقد أخذت الأداة (ألا) مع (هل) بيد خيال الصحابة ليحلق كل منهم في رفقة النبي ؛ ليقف في شرفة قصر مشيد، بجواره زوجه حسناء جميلة، يجرى من تحته نهر عذب، تهب عليه نسمات معطرة، بين يديه ما اشتهت نفسه، لا يخاف من تبدل النعمة أو تحول النعيم.

ومن الأساليب المسيطرة عن طريق التشويق بأسلوب الأمر مع التكرار ما رواه الترمذي: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ اعْلَمْ قَالَ مَا أَعْلَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ اعْلَمْ يَا بِلَالُ قَالَ مَا أَعْلَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّهُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا تُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئًا] رواه الترمذي [١]

(١) سنن الترمذي/ ج ٥/ ص: ٤٥ حديث رقم (٢٦٧٧) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

تتمثل خاصية سيطرة الأسلوب عن طريق التشويق في هذا الحديث في توجيه النبي ﷺ الأمر المباشر لبلال – رضي الله عنه – بالعلم دون أن يعلم بلال ما الذي يجب عليه أن يعلم ثم تركه وهو شديد الحرص علـــى طاعـــة النبي ﷺ مما ألهب حماسه وحقق استشرافه، ثم كرر عليه الأمر مرة أخرى وهو على هذه الحالة من الترقب ليضع الخبر في قلبه ونفسه لا ينفك عنـــه أبدًا ما دامت روحه في نفسه.

ثم ساق الخبر في عبقرية لا تقل عن عبقرية البداية في قوله (إِنَّهُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي) فعبَّر بالطباق بين (أحيا) و(أميتت) فـــي أسلوب يجسد السنة في صورة الحي عن طريق الاستعارة حيث شبَّه الـــسنة بالإنسان وحذف المشبه به ورمز له بلازمـــه وهـــو الحيـــاة علـــى ســـبيل الاستعارة المكنية وكأن من يفعل سنة نسيها الناس يعيـــد إلـــيهم شـــخص الرسول ﷺ وكأنه بينهم.

<u>ثانيًا: أساليب القسم</u>

أسلوب القسم من طبقة الأساليب القوية التي تحمل شـــحنات تأثيريـــة تملك على المخاطب قواه الفاعلة وحواسه المتصرفة، وتأخـــذه إلـــى قلـــب المعنى الذي تناوله المتكلم مباشرة، وبذلك يعدُّ من عوامل سيطرة الأســـلوب وبعث الحيوية في النص واستثارة المخاطب.

والقسم بطبيعته، ودلالته، ومقتضاه باعث من أكبـــر البواعـــث علـــى الإقناع والتأثير إضافة إلى ما يحققه من التشويق لما بعده لما اســـتقر فـــي النفوس من كون الحلف دليلاً على عظمة الأمر، مع ما يتضمنه من انفعـــال الحالف، وما يعكسه من حرصٍ على إقناع المحلوف عليه.

والقسم:معناه: الحلف واليمين، وهو ضرب من ضروب الإنـــشاء غيـــر الطلبي وهو إما أن يكون بجملة فعلية نحو: (أقسم بالله) أو بجملـــة اســـمية نحو: (يمين الله لأفعلن كذا)، أو بأدوات القـــسم وهـــي: (البـــاء، والـــواو، والتاء...)[1] وغيرها.

(١) الأساليب الإنشائية في النحو العربي د. عبد السلام هارون صـــــ ١٦٢ ط دار الجيل بيروت لبنان

(وألفاظ القسم وأدواته التي شاعت في النسق العالي في الحديث الشريف عموماً هي (القسم باللام والقسم بالواو، وقد ورد فيها (وأيم الله – ورب الكعبة – والذي نفسي بيده – والذي نفس محمد بيده – والله – مقلب القلوب)[١]

وأكثر هذه الألفاظ تردداً: (والذي نفسي بيده، والذي نفس محمد بيده، ورب الكعبة) وهذه الألفاظ تعتبر من قاموس الرسول ﷺ الخاص فلم يُعرف الحلف قبله بمثل هذه الألفاظ بهذه الصيغة ووردت قليلاً بعده في حلف بعض الصحابة الذين اتصلوا به كأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وذلك لتأثرهم المباشر بالرسول ﷺ فهي منقولة عنه.

أما بعد هذا العهد، فلعل هذا الأسلوب لم يرد ليظل أسلوباً منفرداً في الحديث الشريف، ولنستطيع التأكيد على أن أسلوب القسم وبخاصة هذه الألفاظ خصيصة يعرف بها الحديث الشريف الصحيح من غيره[٢]

فمن السياقات التي بلغت قمة السيطرة على المخاطبين والتي تصدرها القسم، وتضافرت فيها وسائل السيطرة وجاء القسم فيها بقوله: (والذي نفسي بيده) ما رواه صُهَيْبٌ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمِنْ أَبِي سَعِيدٍ يَقُولَانِ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَكَبَّ فَأَكَبَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا يَبْكِي لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى فَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ثُمَّ قَالَ مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَيَصُومُ رَمَضَانَ وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ إِلَّا فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَقِيلَ لَهُ ادْخُلْ بِسَلَامٍ] رواه النسائي[٣]

بدأ السياق بداية قوية أخذت القلوب من جهة الرهبة حيث بدأه الرسولﷺ بالقسم بالله عن طريق الإخبار عنه بملك النفس، وذكر اليد التي

(١) ينظر بناء الجملة في الحديث الشريف في الصحيحين د. عودة خليل أبو عودة صـ ٦٦١ ط دار البشير ط ٢ سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م

(٢) المرجع السابق صـ ٦٦٢ بتصرف

(٣) سنن النسائي/ ٥/ ٨/ الحديث (٢٤٣٨) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة/ الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.

تصور روحاً في قبضة ولفظ القسم بـــ(والذي نفسي بيده) يـــوحي بالرهبـــة والجلال المشعرة بحساسية الموقف وسيطرة المحلوف به ودرجة تمكُّنه من الحالف، ولذلك ناسبت مقام الترهيب والتخويف والتحذير أكثر من غيره لما توحي به من مشاعر الرهبة والجلال التي تزلزل الوجدان.

وهي في إطلاقها ابتداءً دون مواجهة بالتكذيب توحي بخطر داهم عظيم يُنتَظر.

أضف إلى ذلك تكرار القسم، ولتستشعر في نفسك هيئة صادق لم يكذب قط تلقاك بقسم عظيم كرره ثلاث مرات ثم سكت وأكب فبكي تجد اضـــطراب نفس وتماوج مشاعر ورجفة فؤاد يتبعها استشراف ملح لمعرفة الخبر، وهو ما لا يترك لحاسة من حواسك فرسخاً بعيداً عـــن هالـــة الـــشعور بالرهبـــة مجهولة السبب.

أضف إلى ذلك الشعور النفسي المنبعث من انكباب الرسول ﷺ باكياً بعد ذلك القسم وما يخالج نفوس الصحابة في هذه اللحظات وهـــم فـــي أمـــواج الحيرة فلم يدر أحد منهم على ماذا حلف.

والموقف موقف روحي بين يدي الرسول ﷺ في بيت مرسله.

رد الفعل الطبعي من الصحابة – رضوان الله – عليهم تجاه الموقـــف الشعوري المتصاعد الذي يفقد فيه الإنسان السيطرة على تـــصرفاته التـــي تنساق مقهورة مع وجدان المتكلم فتنهمر دموعاً تجاوباً معه وتخفيفـــاً عـــن الوجدان المضطرب داخله.

تشير إلى ذلك ألفاظ الحديث فقد أفادت (ثم) في قوله بعد الحلـــف (ثـــم أكب) إلى فترة زمنية – تطول أو تقصر – تذهب فيها نفوس المخاطبين كـــل مذهب عن ما ورائها، ثم تعبيره بفاء التعقيب في التعبير عن رد فعلهم تجاه الموقف (فأكب) والتي تشير إلى سرعة التجاوب ومدي التأثر النفسي.

ثم تعبيره بلفظ الشمول (كل) في قوله (فأكب كل رجل منا يبكي) التـــي تؤكد أن الأسلوب قد حقق أثره في كل المخاطبين علـــى اخـــتلافهم، فهمـــاً، وإدراكاً، وتجاوباً – وهذا غاية ما يمكن أن يصل إليه بليـــغ بأســـلوبه فـــي التأثير والسيطرة.

وتأمل بقية السياق (ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى) وتعبيره بـ(ثم) إشارة إلى طول فترة الانكباب تبعها رفع رأسه ﷺ إيذاناً بانقشاع ضباب الخوف، وجملة الحال (وفي وجهه البشري) تؤكد ذلك.

وتتابع المشاعر في الموقف الواحد منه ﷺ بين بث مشاعر الرهبة ثم الإيحاء بالسرور والرغبة يحقق قمة اليقظة وينشط الروح ويجدد اليقين ويضمن للخبر الممهد له البقاء ما بقيت في نفس أنفاسها.

وقول الصحابي (وكانت أحب إلينا من حمر النعم) يشير إلى قمة التجاوب النفسي المنبعث من دلالة الكلمات ودلالات الأفعال التي رافقتها – ترى هل ينسى الصحابة رضوان – حرفًا من كلمات الخبر الذي أورده بعد بقوله (ما من رجل يصلي.....الخ؟).

ويمكنك أن تدرك سيطرة الأسلوب من تأثير القسم مع الفعل المصاحب له، وقوة إيحائه إذا وضعت في الاعتبار النفسي تجاوب النفس ابتداءً، والسعادة التي فضلت على حمر النعم انتهاءً ليس بسبب معلوم لدى المخاطبين ؛ بل هو تجاوب نفسي أوحى به القسم بتصدره، وتكراره، وإيحاء ألفاظه.

(حيث يشعر السامع بأن اللفظ الأدبي يوحي إليه فوق المدلول العادي بمشاعر وأحاسيس خاصة تكون هي الانفعالات والمشاعر النفسية لقائل هذا الكلام حين قاله[١]

وهذا حال الكلام (إذا علا في نفسه كان له من الوَقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس، ويطمع ويؤيس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج....) وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة... [٢]

القسم بلفظ (ورب الكعبة):

والقسم برب الكعبة من ألفاظ القسم التي كثرت في حلف الرسول ﷺ دون غيره ولعلها من سمات الحديث الصحيح وخاصة حينما ترد في

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم د. عبد الحليم حفني صـ ٤٢٩ ط ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨

(٢) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني صـ ٢٧٧

المواقف الإيمانية الوجدانية والتي لا يمكن لوضَّاع أن يزيفها وأيضاً فـــي الإخبار بالمغيبات والتي لا يجرؤ كذاب أن يتحدث فيها.

فمن الأحاديث التي وردت ما رواه أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّـــهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيـــرَةٌ نَـــضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ فِـــي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ قَالُوا نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ ذَكَرَ الْجِهَادَ وَحَضَّ عَلَيْهِ *] رواه ابن ماجة (١)

و قد سبق الحديث عن خاصية السيطرة في هذا الحديث، والتي تمثلت في مجموعة من الأشكال منها:

١. **طرافة المعنى الذي يصف غيباً تتعلق به النفوس بشغف شديد وهـــو الجنة.**
٢. **تصدُّر القسم للحديث دون داع معلوم لدى السامع.**
٣. **التناسق في العبارات ودقة النسج.**
٤. **تناسق ألوان البديع في طبعية وبراعة تخلب اللب وتوجب الحب.**
٥. **عبقرية التصوير، وطريقة تحريك الصورة (فالصورة الموحية تتـــرك في النفس انطباعًا وجدانيًا يمثل فيها دور الشرارة التي لابد منها في إحداث الحركة والانفعال، هذا الانطباع يوقظ في النفس جـــذوة مـــن الأحاسيس مناسبة لهم تسير في اتجاه ما يوحي به..... يظـــل هـــذا الانطباع يؤدي وظيفته في توجيه قوي الـــنفس وإيقـــاظ المـــشاعر، وتفجير القوي اللازمة لتحويل هذا الشعور إلى عمل وترجمتـــه إلـــى سلوك...) (٢)**

هذا وقد يأتي حلف النبي – ﷺ – عن طريق الخبر بلفظ (اقسم)، كمـــا روى أَبُو كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ثَلَاثَةٌ أُقْـــسِمُ عَلَـــيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ

(١) سنن ابن ماجة جـــ ٢ صـــ ١٤٤٨) حديث (٤٣٣٢).
(٢) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د. عبد الغنى محمد سعد بركة صـــ ٣٢

فقْرٍ أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ؛ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ؛وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ]"[١]

وتتمثل خاصية السيطرة في هذا الحديث في تصدير الحديث بصورة مشوقة من صور الإطناب وهي الإيضاح بعد الإبهام المدعوم بالقسم بالصيغة الخبرية.

وقسم الرسول ﷺ بأسلوب خبري يشعر بالثقة والهدوء فالرسول ﷺ ليس مواجهاً بالتكذيب فـ(الصحابة) رضوان يجزمون بصدقه في كل قول يقوله: فهو لا يقسم – وحاشاه– ليجتذب القلوب لتصديقه، وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين، وقالت قريش يوم جمعهم في مستهل الرسالة: ما جربنا عليك كذباً.

إذاً ينصرف وجه اليمين إلى أن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التي ينبغي يستشرف لها السامع، ويتلقاها تلقى الاهتمام لما تعيه من مدلول ديني خطير في حياة الفرد والمجتمع)[٢]

(ومما يلاحظ في هذا الحديث أنه ذكر القسم بأسلوب الخبر وليس فيه ذكر للمقسم به، وذلك مما يفيدنا أن هذه صيغة من صيغ اليمين معتبرة يتأكد بها مدلول ما كان القسم من أجله)[٣]

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي/ ج ٤/ ٥٦٢/ الحديث: (٢٣٢٥) ت – أحمد محمد شاكر وآخرون/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.
(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د. عز الدين على السيد صـ ١٠٠
(٣) انظر كيف كانت يمين النبي ﷺ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني جـ ١٢ صـ ٥٣٤

ومن الملاحظ أن هناك اختلافًا في الموقف النفسي الذي يـــصاحب كـــل صيغة من هذه الصيغ ودرجة الانفعال إذ أننا في القسم (والذي نفسي بيـــده، أو الذي نفس محمد بيده) نجد درجة الانفعال ترتفع، والموقف يعلوه الجلال، والهيبة بما توحي به عبارات القسم من انقباض، وخوف، واضطراب.

والتي تصور هيئة روح الحالف في يد المحلوف به مسيطرًا عليه تمام السيطرة، ولذلك كثر وروده في سياق الترهيب، والإنذار.

أما القسم بنحو (ورب الكعبة) فإن نبرة الكلام معه أقل حـــدة، وظـــلال الألفاظ تتسم بالحنو، والرحمة يُشعر لفظ (رب) فيها بالرعاية، والحفظ، ولفظ (الكعبة) يُشعر بالأمان،والسكينة؛ ولذلك كثر وروده في الترغيب.

القسم بأسلوب خبري (اقسم) يوحي بالثقة والهدوء في تقدير الخيـــر، وتثبيته.

ومن الجدير بالذكر أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا يدركون الفرق بين هذه الصيغ في درجة القوة والحالة النفسية للرسول ﷺ فقد رُوي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اجْتَهَدَ فِـــي الْيَمِـــينِ قَـــالَ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ][1]

والقسم بـــ(الله) أو بـــ(أيم الله) يختلف باختلاف الخبـــر الـــذي يليـــه، وبقدر أهمية هذا الخبر والدرجة التي يريد أن يحققهـــا الرســـول ﷺ مـــن اليقظة عناية بالخبر قال الحافظ ابن حجر عند الحديث عن قوله ﷺ فيمـــا روي عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَ مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: فُلَانَةُ تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا. قَالَ: مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّـــى تَمَلُّوا] فيه جواز الحلف من غير استحلاف وقد يستحب إذا كان فيه تفخـــيم أمر من أمور الدين، أو حث عليه، أو تغير من محذور)[2]

وعلى ذلك يمكن أن نقول إن من فوائد قسمه – ﷺ – في تأكيد المعنى، وتحقيق سيطرة الأسلوب ما يلي:

---

(١) الحديث في فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني جـــ ١٢ صـــ ٥٣٤

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخاري جـــ ١ صـــ ١٠٩

١- تأكيد الكلام به قال الحافظ بدر الدين العيني في قوله ﷺ فيما رواه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ هُرْمُزَ مِمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ]: فائدة القسم تأكيد الكلام به[١]

٢- تفخيم أمر من أمور الدين، أو الحث عليه.

٣- التنفير من محذور كما ذكر ابن حجر[٢]

٤- تحقيق درجة من الانتباه واليقظة اللازمة بحسب أهمية الخبر الذي يليها كما مر.

٥- الإشارة إلى أهمية المحلوف عليه والتنويه به[٣] هذا ما يضفيه القسم على السياق من إيحاءات ودلالات تجعله يتدفق بالحياة وينبض بالمشاعر كقلب قائله، وهو أمر لا محالة يحقق سيطرة الأسلوب.

ثالثًا: أساليب التعجب

من الوسائل التعبيرية التي تحقق سيطرة الأسلوب بعد أن تلفت انتباه المخاطب أساليب التعجب لما هو معلوم من أن صدور التعجب لا يكون إلا بسبب ظهور عظيم خفي سببه، فينشغل المخاطب بمتابعة المتكلم بحثًا عن سبب العجب، ولطالما تفنن المبدعون من الخطباء، والشعراء في استخدام هذا الأسلوب للتواصل مع المخاطبين بقصد الفهم، والإفهام مع تحقيق المتعة الفنية.

وإذا كان التعجب انفعالًا يحدث في النفس عند الشعور بأمر خفي سببه، فلا يطلق على الله أنه متعجب إذ لا شيء يخفى عليه وما وقع مما ظاهره ذلك في القرآن فمحمول على أنه مصروف إلى المخاطب نحو قوله تعالى(فما أصبرهم على النار) أي أن حالهم في ذلك اليوم ينبغي لك أيها المخاطب أن تتعجب وقيل التعجب هو استعظام فعل فاعل ظاهر المزية فيه، وقال الرازي: (هو استعظام الشيء مع الجهل بسبب عظمه، ثم يجوز استعمال لفظ التعجب

(١) عمدة القارئ للحافظ بدر الدين العيني جـ ١ صـ ١٤٤

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخاري جـ ١ صـ ١٠٩

(٣) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د. عز الدين على السيد صـ ١٠٠ بتصرف.

عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعِظَم سبب حصول) (١). وعلى ذلك فوجود التعجب في الأسلوب ســبب مــن أســباب انشغال الوجدان به حتى ينقضي سبب العجب بمعرفة السبب ؛ ولذا قالوا إذا ظهر السبب بطل العجب.

ولما كان أسلوب التعجب بهذه المثابة كان سببًا من أســباب ســيطرة الأسلوب سيطرة جزئية تستمر حتى يقضي المتلقي وطــره بمعرفــة ســبب التعجب، وقدرة المبدع في استخدام هذه الخاصية تجعل قوة أسلوب التعجب في السيطرة على حواس المتلقي متفاوتة من أسلوب إلى أسلوب.

وإذا تتبعنا الشواهد العالية في الأنساق المميزة في التراث العربي ألفينا الأسلوب النبوي له الصدارة في استخدام هذه الخاصية التي تطوِّع حــواس المتلقي خلال النص لتصرُّف المبدع حتى يقرر معناه.

وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب التعجب بالصيغة القياسية، والسماعية في بث مشاعر وجدانية تجاه موضوع معين، أو شيء معين اســتعظامًا لــه، أو تعظيمًا، أو تفخيمًا، أو تهويلًا بغرض بثه في مــسارب نفــوس المخــاطبين لإحداث حالة مماثلة لديهم تجاه المتعجب منه، وقد استخدم في ذلك أســاليب سماعية للتعجب.

كقوله ﷺ فيما رواه (مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا بِفِنَاءِ الْمَسْجِدِ حَيْثُ تُوضَعُ الْجَنَائِزُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ قِبَلَ السَّمَاءِ فَنَظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَ بَصَرَهُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ثُــمَّ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا نَزَلَ مِنَ التَّشْدِيدِ قَالَ فَسَكَتْنَا يَوْمَنَا وَلَيْلَتَنَــا فَلَمْ نَرَهَا خَيْرًا حَتَّى أَصْبَحْنَا قَالَ مُحَمَّدٌ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا التَّشْدِيدُ الَّذِي نَزَلَ قَالَ فِي الدَّيْنِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُــمَّ

(١) مفاتيح الغيب ــ للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي/ ج٢١/ ١٨٨/ الطبعة الأولى/ دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م.

عَاشَ ثُمَّ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ عَاشَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ]رواه أحمد [١]

يبدو جمال الحديث النبوي وروعته في عموم الأسلوب العالي الذي يأخذ المتلقي بالكلية بعد أن يقطعه عن شواغله بجملة من وسائل السيطرة الأسلوبية المنبعثة من هذا التعجب، ومن الصدق الشعوري الذي انعكس من الباطن على الظاهر في جملة من الحركات الجسدية المعبرة بداية من رفع النبي – صلى الله عليه وسلم– رأسه إلى السماء ثم طأطأ، ووضع يده على جبهته، وهي أمور توحي بعظم الخطر.

وذِكْرُ لفظ التعجب (سبحان الله) إذا تقدم الخبر استلزم المعنى استعظام ما يذكر بعده استلزامًا بلاغيًا)[٢].

وتكراره يصعِّد المعنى، ويرتقي به إلى حد يشعر بعظم النازلة أضف إلى ذلك جملة الحركات التي صدرت من الرسول ﷺ قبل نطقه والتي تشير إلى شدة خوفه على أمته،والذي صدر في نفثة التعجب المكرر(سبحان الله).

وقد استخدم الرسول ﷺ أيضاً صيغًا قياسية في إبراز أمثال هذه المشاعر روى(عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ وَدَمِهِ]رواه الترمذي[٣]

والرسول ﷺ أراد أن يقرر عظمة حرمة المؤمن دمه، وعرضه ولكنه لم يفعل ذلك مباشرةً بل جاء بأسلوب التعجب (ما أفعل) تعجبًا واستعظامًا لطيب الكعبة، وطيب ريحها، وعظمتها، وعظمة حرمتها.

وبعد أن صعَّد التعظيم في نفوس القوم لما للكعبة من حرمة عند الله، وفي نفوسهم، وقرر ذلك فضَّل عليها حرمة دم المؤمن، وماله مؤكدًا ذلك

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل/ ٣٧/ ١٦٣/ الحديث رقم (٢٢٤٩٣) المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م/ الناشر: مؤسسة الرسالة.

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د. عز الدين على السيد صـ ٣٧٠ بتصرف

(٣) سنن الترمذي كتاب: (البر والصلة) باب (ما جاء في تعظيم المؤمن) حديث (٢٠٣٢، وسنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٢٩٧) حديث (٣٩٣٢).

بقسم له خطره في حلفه ﷺ بياناً،وتأكيداً لعظمة حرمة المؤمن وماله. كما استخدم ﷺ التعجب بالاستفهام وقد ورد كثيرًا في أساليب مسيطرة ذات تأثير مُستَدَام كقوله فيما روي(عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ قَالَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حِلَقًا فَقَالَ مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ قَالَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ.....] رواه أبو داود(١)

وإذا تركنا النسق الأعلى بين الأساليب البشرية ونظرنا فيما دونه ألفينا المبدعين متفاوتين في القدرة على استخدام هذا الأسلوب، وفي درجة السيطرة به على المخاطبين على قدر مهارتهم وتمكنهم.

وقد استخدم البلغاء التعجيب لاستثارة كوامن المتلقين، وانفعالاتهم لتوافق ما يستشعرونه في مواقفهم وقضاياهم، وتأييدهم فيما يذهبون إليه تأمل قول أبي الطيب (الخفيف):

أتُراهـــا لكثـــرة العُـــشَّاق تحسَب الدمعَ خلْقـة فـي المـآقي
كيفَ تَرْثى التَّي تَـرَى كُـلَّ جفـن راءها غيـرَ جَفْنهـا غيـرَ راقـي
أنـــتِ منـــا فتنـــتِ نفـــسكِ عُوفيتِ مـن ضَـنى واشـتياق(٢)

وحسن هذا المطلع وسيطرته نبعت من هذه الاستفهامة الحائرة المتعجبة من حال المحبوبة التي ترى الدموع على كثرتها في أعين المحبين وكأنها أمر طبيعي لا تتأثر به كما مكَّن لهذا الأثر الجميل للمطلع وزاده سيطرة بهذه العلة البديعة التي افترضها لسبب قسوة المحبوبة وعدم رحمتها للمحب الباكي بكونها ترى الدمع خلقة طبيعية فلا تتأثر ولا ترحم وهو من بديع حسن التعليل، وكذا قوله (الوافر):

أيـدْري مـا أرابـكَ مـن يُريـب وهل ترْقى إلى الفلـكِ الخطـوبُ؟
يجـشِّمُك الزمـانُ هـوًى وحُبـاً وقد يـؤْذى مـن المِقـة الحبيـبُ

(١) سنن أبي داود جـ ١ صـ ١٧٧ حديث (٦٦١).
(٢) يوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبـري/ ج ٢/ ٣٦٧/ت مـصطفى الـسقا – إبراهيم الإبياري – عبد الحفيظ شلبي – طبعة مكتبة مصطفى البـابي الحلبـي سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١م.

وكيـــف تعِلّـــك الـــدُنيا بـــشيء وأنـــت لعلّـــةِ الـــدنيا طبيـــبُ؟
وكيـــف تنوبُـــك الـــشّكوى بـــداءٍ وأنت المُستَغاثُ لِمـــا ينـــوبُ؟ (١)

ومن التعجب بالصيغ السماعية لأبي العتاهية (الكامل):

كتب الفنـــاء علـــى البريـــة كلهـــا والنـــاس بـــين مقـــدّم ومخلّـــف
ســـبحان ذي الملكـــوت أيّـــة ليلـــة مخضت بوجه صباح يوم الموقـــف(٢)

وتتمثل خاصية السيطرة في هذين البيتين في طبيعة الموضوع الذهدي من ناحية ثم استعمال الشاعر لكلمات موحية بطبيعتهـــا كقولـــه (الفنـــاء – سبحان – ذي الملكوت – الموقف) إضافة إلى التعجب الذي يثير قضية فـــي غاية الهيبة والجلال، وهي قضية قيام الساعة واختصاص الله وحده بعلمهـــا ومفاجئتها للناس بكل هولها، وهو الأمر الذي استلزم التعظيم عن طريق هذا التعجب.

زد على ذلك حسن النسج، ودقة الصياغة حيث استعمل لشاعر التعبير بالكتابة التي تفيد التحقيق، واللزوم ثم التوكيد للعموم بلفظ (كلها) مع هـــذا الطباق بين (مقدم، ومخلف) الذي يستوعب أجيال البشرية ويجعل كل سامع لها معنياً بالخطاب.

المبحث الثاني:

من عوامل سيطرة الأسلوب (المعاني الطريفة – خطـــاب الوجـــدان – الرثاء – التشبيب – عبقرية الصورة).

أولًا: المعاني الطريفة.

من الأمور التي تستحوذ على عقل المخاطب وقلبه، وتحقـــق ســـيطرة الأسلوب على حواسه؛ الأخبار الطريفة التي لم يسبق للمخاطب العلم بها، أو تلك التي تحمل غرابة تثير الدهشة والعجب.

وفي هذا المجال يتصدر الحديث النبوي قمـــة الهـــرم ؛ لأنـــه تنـــاول موضوعات حملت هذه الصفة مما لا يمكن أن يتحدث بها إلا نبي كالإخبـــار

(١) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري/ ج ١/ ٧٢ .
(٢) ديوان أبي العتاهية ٢٧٦.

عن الله – عز وجل – والحديث عن البرزخ، والقبر، وأحداث اليـوم الآخـر بكل ما فيه من أهوال، ونعيم، وما حدَّث به من الأمور الغيبية، والمعجـزات النبوية، ومن هذه الأحاديث.

ما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِـنَ النَّاسِ قَالَ قِيلَ مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّـتُهُ) رواه ابن ماجه(١)

وتأتي خاصية السيطرة في الأسلوب من غرابـة الخبـر الـذي ألقـاه الرسول ﷺ على مسامع أصحابه ثم سـكت (إن لله أهلـين...) وهـو خبـر يستحق العناية، والاهتمام وهو ما عكسته تلـك الاسـتفهامة العجلـى مـن صدورهم بحثًا عن تفسير، وتوضيح (من هـم يـا رسـول الله؟) وظـاهر الاستفهام يشير إلى حسن فهم الصحابة – رضوان الله عليهم – لمـضمون الكلام، لذا كان سؤالهم (من هم؟) رغبة في أن يكونوا منهم، وحرصًا علـى تحصيل هذا الفضل، ولم يسألوا (كيف يكون لله أهلون؟)

لأن عقيدتهم مستقرة على تفرد الله، وتنزهه عن الشريك، والولد، وهم أحسن الناس فهماً لكلام النبي ﷺ.

والنص على ذكر المسند إليه في قوله (أَهْلُ الْقُـرْآنِ هُـمْ أَهْـلُ اللَّـهِ وَخَاصَّتُهُ) مع ما يحققه من التقرير يفيد تكريمهم، وتخصيصهم بإضافة الأهل للقرآن، والذي استحقوا به أن يضافوا لله تشريفًا، وتكريمًا.

وقوله: (أهل الله) أي: أولياؤه المختصون به اختصاص أهل الإنـسان به (وخاصته) (أي الذين يختصون بخدمته قال العسكري: هذا على المجـاز، والتوسع فإنه لما قربهم واختصهم كانوا كأهله ومنه قيل لأهل مكة أهـل الله لمَّا كانوا سكان بيته وما حوله كانوا كأهله)(٢).

ومن الإخبار بالأمر الطريف ما جاء عَنْ أَنَسٍ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي إِمَامُكُمْ فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالِانْصِرَافِ فَـإِنِّي أَرَاكُـمْ

(١) سنن ابن ماجة جـ ١ صـ ٧٨ حديث (٢١٥)

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير/ المؤلف: عبد الرءوف المناوي/ ٢/ ٤٩٥ الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ/ الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا قالوا: ومَا رأيت يا رسولَ الله؟ قال رأيت الجنة والنار] رواه مسلم(١)

وخاصية سيطرة الأسلوب تتمثل في إخبار الرسول ﷺ بالأمر العجيب الذي يخالف فِطرة البشر، وهو أنه يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وهو أمر غير مألوف إلا له ﷺ كما زاد الأسلوب سيطرة بتصعيد درجة التشويق بالقسم في قوله بعده (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ) ثم بهذا الافتراض البليغ عن طريق الشرط (لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا).

وهو بذلك يهز وجدانهم، ويوقظ مواطن الأفهام في نفوسهم، ويبعث عدة علامات استفهام لديهم يوصِّل إليهم خلال الإجابة عنها ما يريد تبليغه بعد أن سيطر منهم بأسلوبه على كل مراكز الشعور، ومواطن الإدراك، وضمن إصغاءهم التام مع تمام الاشتياق، والترقب منهم لكل ما سيقول.

ومن طريف الإخبار بالغيب المنتظر الذي يستحوذ على العقل، والقلب حتى يتقرر المعنى ما جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ)(٢) وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا] رواه مسلم(٣) والترمذي(٤)

وتتمثل سيطرة الأسلوب في طرافة الخبر الذي يقرر موت الموت، وهي فكرة جديدة على الأسماع في وقت الحديث كما أن موضوع الحديث يحكى صورة أسعد مواقف الآخرة، وأشقاها على الإطلاق أسعدها لمن استقر في الجنة، وأشقاها لمن استقر في النار.

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ صـ ٣٢٠ (الصلاة) رقم ١١٣

(٢) الآية ٣٩ سورة مريم

(٣) صحيح مسلم كتاب (الجنة وصفة نعيم اهلها) حديث (٤٠)

(٤) سنن الترمذي كتاب: (صفة الجنة) حديث (٣٥٥٧)

وقد جاء استفهام التقرير لأهل الجنة مرة (هَلْ تَعْرِفُونَ هَـذَا؟) ولأهـل النار أخرى (هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟)؛ لتصغي أسماعهم لمصدر الاستفهام، وتتعلق أبصارهم بالمستفهم عنه فيرى أهل الجنة نهاية النهاية بموت الموت، ويذبح بذبح الموت آخر أمل لأهل النار في الخروج منها.

فالاستفهام تقرير لأهل الموقفين حملاً على الإقرار بمعرفتهم للمـوت، وتنبيهًا، وإشهادًا لهم للحظة الفصل الأبدية بشارة فوق بشارة لأهل الجنـة، وتحسيرًا فوق تحسير لأهل النار.

والحديث بأساليبه بالنسبة للمخاطبين ترهيب، وتحذير يـدع مـشهد الموت المذبوح بين الجنة، والنار بين سمع كل سامع، وبصره لا يزال يلـح على ضميره باستفهام راعدٍ واعدٍ أين ستكون عند ذبح الموت؟!

ثم يختم حديثه بدفقة مركزة من الترهيب تمثلت في الآية الكريمة التي كانت تبرق بألفاظها، وترعد في سياق ينذر بهول شـديد فحملـت كلمـات (الإنذار – الحسرة – القضاء – الأمر –الغفلة) وهي كلمات موحية بطبيعتها فالإنذار له ظلال من الرهبة،والخوف ينقبض لها القلب لما هو معهود مـن استخدام اللفظة عند الخطر.

ولفظ (الحسرة) يلقي بظلاله على كل قلب بتجربةٍ شخصيةٍ وقعـت لـه يومًا تجرُّع فيها من هذا الإحساس قدرًا، والحسرة تختلف باختلاف الـسبب الذي نشأت عنه، ولا شك أن أشد أنواع الحسرة هي فوت الجنـة ناهيـك – وأعاذك الله – عن دخول النار.

ثم التعبير بلفظ القضاء الذي يوحي بنقطة اللا عودة من المستقر الذي بلغه العبد الشقي الذي ضرب اليأس من الخلاص من هذا المـصير الأسـود أطنابه في قلبه غير مفارق.

ولفظ الغفلة الذي يصور حال الناس في دروب الدنيا وهم فـي ظـلال الغفلة، والهول المنتظر يوشك أن يدركهم بصبح الموت.

ثم وجَّه النبي ﷺ كل موجات الترهيب بين الحديث، والآية بإشارة رقيقة بيده إلى سبب الغفلة، والحسرة وهي الدنيا تحذيراً من الغرور بها، ويا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة !.(١)

والمعاني التي تضمنها الحديث تحقق تمام السيطرة للأسلوب من خلال طرافة الموضوع، وخطره، فجذب النفس من جهتين قويتين.

ويكمن البعد النفسي للطرافة، والجدة في هذه النوعية من الأحاديث في أنها تشعل إعجاب النفس، وتفاجئها بالمعاني، والدلالات الإيحائية التخيلية التي لا عهد لها بها فتثير دهشتها، واستغرابها، وتستدرجها لاتخاذ موقف مناسب من التجربة الشعورية التي اقترنت بحركة خيالها.

ومن الأمور التي تنبه الغافل وتجذب السمع وتقطع المتلقي عن الشواغل فينصرف إلى المتكلم بكامل وجدانه متابعًا سير الخبر حتى يروي منه غلته ما جاء عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – أَتَى الْمَقْبُرَةَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا قَالُوا أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ فَقَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ](٢)

وقد وضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – الخبر الطريف مقدمة لحديثه حتى يردّ العقول التي أذهلها مشهد القبور، وراحت تتفكر في حالها، فتفرقت على نفسها، فجمعها بعبقرية بجملة واحدة في قوله (وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا) وهم – رضي الله عنهم – يرون أنهم إخوانه، وأحبابه ؛ فأراد أن يلفت نظرهم إلى من سيأتي بعدهم من إخوانهم، ويرسل رسالة عبر الزمان، والمكان تربت على نفوس المؤمنين، وتوحي بقرب الرسول ﷺ

(١) ينظر شرح الحديث بالتفصيل وآراء العلماء في تجسيد الموت في (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) صـ ٤٢٣ جـ ١١ كتاب: (الرقاق) باب (٥١) حديث (٦٥٤٨)

(٢) الحديث في صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢١٨ كتاب: (الطهارة ٣٩).

منهم شدًا لأزرهم، وتقوية لعزيمتهم باقية بقاء الدهر تـــؤدي هـــذا الـــدور همسة حب، وحنان منه – صلى الله عليه وسلم –. أضف إلى ذلك أســـلوب التشويق بالاستفهام (أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟) والذي أحكـــم ســـيطرة الأســـلوب علـــى أفهـــام المخاطبين حتى قرر المعنى المراد في أتم صورة محققًا أعلى درجـــة مـــن التجاوب.

ومن الخبر الطريف الذي يسهم في تحقيق سيطرة الأسلوب إخباره عن محبة بعض الجمادات له، ومحبته لها روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أن النبي – صلى الله عليه وسلم – (...أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا بَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَـــا وَنُحِبُّـــهُ) رواه مسلم[1] وتتمثل خاصية سيطرة الأسلوب في هذا الشعور المفعم بالحب لكل الكائنات مع هذا التجاوب، والمحبة المتبادلة التي تخـــضع لهـــا قلـــوب المخاطبين، وتشعل وجدانهم، وهذه الطريقة في تقرير المعاني مـــن أقـــوى طرق التعبير سيطرة على وجدان المخاطب، وتأثيرًا فيه.

ثانيًا: خطاب الوجدان

وخطاب الوجدان بما يثير شجونه من أقوى وسائل ســـيطرة الأســـلوب على وجدان الإنسان قديماً، وحديثاً لسرعة علوقه بالقلب، والخاطر لاســـيما المشاعر الإنسانية العامة كالمحبة، والحنين، والرثاء، والتذكر، وفـــي غيـــر الحديث النبوي التشبيب، وغيره.

وأرق هذه المشاعر، وأصفاها، وأصدقها، وأخلـــصها طـــي الحـــديث النبوي تأمل قوله ﷺ في موقف الشجن والحزن عند تـــذكر الـــراحلين مـــن الأحباب السابقين إلى المقابر التي هي مصير كل حي – عَـــنِ الْبَـــرَاءِ بْـــنِ عَازِبٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَـــا عَلَـــى رُءُوسِـــنَا الطَّيْرُ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا...] رواه أبو داود [2]

(١) صحيح مسلم جـــ ٢ صـــ ٩٩٣ كتاب: (الحج) حديث (٤٦٢).
(٢) سنن أبي داود جـــ ٤ صـــ ٢٣٩ كتاب: (السنة) حديث (٤٧٥٣

فعبارة (وبيده عود ينكت به الأرض..) تحكى موقفا نفسياً أذهل النفس، فصدرت منها هذه الأفعال التي تهدف إلى التنفيس عن النفس من هول ما رأى من فتنة القبر، وعذابه حتى أرهبه المشهد خوفاً على أمته فراحت يده تنكت بهذا العود.

قال الجاحظ في حديثه عن أنواع الخط (وخطوط أخر، تكون مستراحا للأسير والمهموم والمفكر، كما يعترى المفكر من قرع السن، والغضبان من تصفيق اليد وتجحيظ العين... وفي خط الحزين في الأرض يقول ذو الرمة (الطويل):

وما يَرْجِعُ الوَجْدُ الزَّمانَ الذي مَضَى ولا للفَتَى مِن دِمْنَةِ الدّار مَجْزَعُ
عَشِيَّةَ مالِي حِيلَةٌ غَيْرَ أنَّنِي بِلَقْطِ الحَصَى والخَطِّ في التُّرْبِ مُولَعُ
أخُطُّ وأمْحُو الخَطَّ ثُم أعِيدُه بِكَفَّيَّ، والغِرْبانُ في الدَّار وقَّعُ (١) (٢)

فالشاعر يحكي موقفه النفسي، وشعوره اليائس من خلال هذا التصرف اللاإرادي حينما حل بدار محبوبته فوجده أمسي خلاءً أما تصرف الرسولﷺ ونكته بعود فيعكس صدى ما بداخله تجاه ما رأى.

وهذا التصرف من الرسول ﷺ مع إطراقه ﷺ يشيع الهيبة، والجلال على الموقف الذي هال الرسول ﷺ لشدة ما يري من حال الميت، وعذاب القبر فانه يرى ما لا يرون، فينعكس على حاله، وعلى صفحة وجهه، فينعكس ذلك على من حوله، فيطبع ما في وجدانه في وجدانهم بقدر ما يستطيع، ويستوعب كل وجدان

أضف إلى ذلك بقية الحركات التي قصَّها الراوي لشدة أثرها عليهم في قوله: (فرفع رأسه) وهي توحي بما هاله، وتمهِّد لما قاله بعد في صورة الأمر الذي يطرق على القلوب حال إقبالها، وهي في ذروة التأثر بالأسلوب في قوله: (استعيذوا) تلخيصاً لما سبق في جملة افعلوا، وتأكيداً لهذا الهول،

(١) الحيوان للجاحظ (أبي عمر بن بحر الجاحظ) ت عبد السلام محمد هارون جـ ١ صـ ٦٣ ط ٣ ط دار أحياء التراث العربي سنة ١٣٨٨ هـ سنة ١٩٦٩ م

(٢) ديوان ذي الرمة جـ ١ صـ ٣٤٩ ت د. واضح الصمد ط دار الجيل بيروت ط الأولى سنة ١٤١٧ هـ سنة ١٩٩٧ م

وتصعيدا لدرجة الترهيب الذي يستلزم مزيد الاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية لاسيما ما يسبب عذاب القبر.

ولا ننسى التكرار الذي أكدّ الأمر، وتركه مِلْئ القلوب، والأسماع.

وقد بلغ النسق العالي قمة السيطرة الأسلوبية على قلوب المخــاطبين، وعقولهم بجملة الوسائل التعبيرية التي ترافقت في بلوغ هــذا المبلــغ فــي التأثير.

تأمل أثر سيطرة الشعور الحزين في قول أبي العتاهيــة، وهــو يبــث شجونه على مسامع محبيه:(الطويل)

ألاَ مَــنْ لِمَهْمــومِ الْفُــؤادِ حَزينِــهِ إذا ابْتَزَّ مِنْــهُ الْعَــزْمَ ضَــعْفُ يَقينِــه

وإدّ هُــوَ لا يَــدْري لعَــلِّ كِتابَــهُ سَــيُعْطاهُ مَنْــشورًا بِغَيْــر يَمِينِــهِ [1]

وتبدو خاصية السيطرة في هذين البيتين في براعة الشاعر فــي بــث أحزانه، والتهالك في إظهار ضعفه الذي يدفع وجدان سامعيه إلــى التفاعــل معه مرققاً قلوبهم لحاله، وهو قوي التأثير من هذا الباب على النفوس التي تتابعه بشغف حتى تنقضي شكواه.

تترافق مع هذا الشعور في السيطرة دِقَّةُ الصياغة التي صدَّرها بطرقــة المستفتح بالأداة (ألا)،ثم التعبير بالهم في صيغة المفعول دلالة على سيطرة الحدث عليه، ثم إنه برع في النسج حين أضاف الهم للفؤاد دلالة على شــدة التمكن منه،حيث وقع في أخص جوارح الإنسان في ملكها، وهو القلب.

وزاد الأسلوب سيطرة بعموم الحديث، وعموم الموقف الذي يتعرض له السامعون، من ضعف الإيمان، واليقين، وقوته، والإيمان في عامة البشر – عدا الأنبياء – يزيد، وينقص، فتلك حال كل المخــاطبين، وهــو مــا يزيــد المخاطب عناية بالموضوع ؛ لما يترتب عليه يوم القيامــة مــن فــلاح، أو خسران.

أضف إلى ذلك طرافة الحديث عن مسألة الحساب، وتطــاير الــصحف وهي معانٍ تشعل قلب كل مؤمن لأنها تنبهه إلى حاله عند هذا الموقف.

---

(١) ديوان أبي العتاهية/ ص: ٤٤٨ ط/ طبعة دار بيروت للطباعة والنشر – ســنة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦.

ثالثاً: الرثاء.

ومما يحقق سيطرة الأسلوب عن طريق مداعبة الوجدان بالمشاعر الفطرية التي يشترك فيها البشر كالمحبة والحزن والشجن والأسى ولذلك تجد قوة تأثير المراثي وجذبها للوجدان الذي يظل تحت تأثيرها حتى يتقرر المعنى وهو في قمة التجاوب مع المتكلم.

وإذا أردت أن ترى أثر الأسلوب، وكيف يذهب في التأثير في النفوس كل مذهب إذا ضَمَّ نبيل المعاني وصادق المشاعر، وحسن المدخل.

تأمل أثر رثاء قُتيلة بنت الحارث لأبيها بعد أن أمر الرسول -ﷺ- بقتله قالت (الكامل):

يا راكباً إنّ الأُثَيْلَ مظنَّةٌ ... مِن صُبْح خامسةٍ وأنتَ مُوفَّقُ

أبلِغْ به مَيْتاً بأنّ تحيّةً ... ما إن تزالُ بها النجائبُ تخْفُقُ

مِنِّي إليكَ وعَبْرةً مسفوحةً ... جادتْ بدرَّتها وأخرى تَخْنُقُ

هل يسمعَنَّ النضرُ إن ناديتُه ... إن كان يسمعُ هالكٌ لا يَنطِقُ

ظلّتْ سيوفُ بني أبيهِ تنوشُه ... للهِ أرحامٌ هناكَ تُشَقَّقُ

صبراً يُقادُ إلى المنيّة متْعَباً ... رَسْفَ المقيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ

أمُحمدٌ ولأنتَ نَسْلُ نَجِيبةٍ ... في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ

ما كان ضرّكَ لو مَنَنْتَ وربّما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ

أوْ كُنتَ قابلَ فديةٍ فليأتِينْ ... بأعزِّ ما يَغْلو لديكَ ويَنفُقُ

والنضرُ أقربُ مَنْ أخذتَ بزَلّةٍ ... وأحقُّهم إن كان عِتقٌ يُعْتَقُ

قال الراوي (فبلغنا أن النبي قال:" لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته" فيقال:" إن شعرها أكرم شعر موتورة وأعفه وأكفه وأحلمه")(١).

وتبدو قوة أسلوبها في غلبة الأسى، وعمق الحسرة، وفرط العاطفة التي أبكت بعد أن بكت دماً، وهي بسبيل العتاب على ترك العفو رعاية للصلة، والجود بالصفح، وقد انتقلت في سلاسة إلى المدح الذي يقرر أن

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ ١/ ٢٣: ٢٤/ ت/ سمير جابر/ الطبعة الثانية/ الناشر: دار الفكر – بيروت.

الممدوح جواد كريم كانت تأمل منه عتق رقبة والدها، وهي في كل ذلك لـم تعَدم الفطرة، والطبع لتنسج تلك المعاني في أدق الأساليب وأرقها.

وتأمل قول البارودي في رثاء زوجته حين ورد إليه نعيها وهـو فـي منفاه في سرنديب (الكامل):

أيَـدَى المنـون قـدحتِ أيَّ زنـادِ وأطـرْت أيَّـة شـعلة بفـؤادي
أوهنتِ عزميْ وهـو حملـةٌ فيلـق وحَطمْتِ عودي وهو رُمْحُ طرادي
لم أدْرِ هل خطـبٌ ألـمّ بـساحتي فأنـاخ أم سـهمٌ أصـاب فـؤادي
أقـذى العيـونَ فأسـبلت بمـدامع تجري علـى الخـدين كالفرصـاد
مـا كنـت أحـسبني أراعُ لحـادث حتـى مُنيـتُ بـه فـأوهن آدي
أبلتني الحـسراتُ حتـى لـم يَكَـدْ جـسمي يلـوح لأعـين العـواد
أسـتنجد الزفـراتِ وهـي لـوافحٌ وأسَـفّه العبـراتِ وهـي بـوادي
لا لوعتي تَـدَعُ الفـؤاد ولا يـدي تقوى على ردِّ الحبيـب الغـادي[1]

تتجلى عبقرية الشاعر وخاصية السيطرة في الأسلوب في هذه الأبيـات في عدة مظاهر من أبرزها الفكرة والموضوع الذي له فضل تعلق بالوجدان المفعم بالحزن والأسى بين ألم الفقد ووطأة الاغتراب، وهي مشاعر وجدانية سرعان ما تأخذ طريقها في مسارب النفوس.

كما تتجلى في عبقرية الابتداء حيث استهل الشاعر مرثيته بنداء غيـر معتاد فنادى ما لا يسمع بما لا يمكن تحقيقه تفجعاً وتوجعًا وأسى وحـسرة اختلطت في لحظة من لحاظها المعاني المجردة بالمحـسوس العاقـل الـذي يُخاطب فنادها متفجعاً مستفهماً عن طرقة الألم وباب العذاب التـي امتـدت لتفتحه حين طالت رفيقة دربه زاد الأمر هولاً أنه في غربة فصار بين حنين وشجن وأنين لا يُعزى فيه.

وتتجلى عبقرية الشاعر فيما تتجلى في التعبير بـالوهن فـي صـيغة الماضي المتحقق الذي صارت يد المنون فاعلاً له وعزمه مفعولاً.

---

(١) ديوان البارودي ص ١٥٣، ١٥٤/ ت: على الجارم، ومحمد شفيق معروف/ دار العودة – بيروت – ١٩٩٨ م.

وتسليط فعل الوهن على العزم وليس على الشخص نفسه فيه دلالة على عمق التأثير وقوة المصيبة التي أتت علي مصدر قوته وسبيل خلاصه.

وتأمل ذلك الوصف العبقري بالجملة الاسمية التي تؤكد عظمة الأثر وشدة النازلة في قوله (وهو حملة فيلق).

والتعبير بالحملة وإضافتها للفيلق بما للفظ من قوة الإشعاع في الدلالة على القوة يوحي ابتداءً بقوة الشاعر على التحمل وهو الذي تعرض للنفي وتصدى لأعدائه ولم يفتر عزمه.

ويقرر انتهاءً منزلة زوجته من نفسه وشدة حبه لها والمدد الروحي التي كانت تمدُّه به رغم البعد كما يوحي بين ذلك بعظم الخطب الذي ألمَّ به.

وقد أكدَّ المعنى وأعاده بصورة عبقرية في الجملة المعطوفة بالواو في قوله (وحطمت عودي) والتعبير بالحطم يصور هول النازلة، وشدة وقعها لاسيما، وقد وصفه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والدوام بقوله: (وهو رمح طراد).

ولطالما أشعلت المراثي خواطر الشعراء فألهبوا بها وجدان الناس وملكوا عليهم مشاعرهم حيث طبعوا فيها هذا الأسى الذي اعتراهم وفاض منهم فأغرق من سمعهم.

تأمل قول الخنساء ترثي صخراً وكيف أشجت وأبكت؟ (البسيط):

قذى بعينكِ أمْ بالعين عوَّارُ؟ لا بلْ بكيتَ لمن أقوتْ لهُ الدَّارُ
تبكي لصخرٍ هي العبرَى وقد عبرتْ ودونهُ من ترابِ الأرضِ أستارُ
كأنَّ عيني لذكراهُ إذا خطرتْ فيضٌ يسيلُ على الخدَّين مدرارُ
تبكي خناسُ على صخرٍ وحقَّ لها أودى بهِ الدَّهرُ إنَّ الدَّهرَ عثّارُ
في جوفِ رمسٍ مقيماً قد تضمَّنه في قبرهِ مقمطرَّاتٌ وأحجارُ
يا صخرُ ورَّادُ ماءٍ قد تناذرهُ أهلُ المواردِ ما في وردهِ عارُ (١)

وتبدو عناصر سيطرة الأسلوب فيما تبدو في خطاب الوجدان الذي يبث الشجى والحزن الذي بلغ بصاحبته حدَّ التخبط والعجز عن التمييز الذي

(١) ديوان الخنساء/ ٤٥ص: ت/ حمدو طماس/ الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م/ دار المعرفة – بيروت.

عكسه الاستفهام الذي تصدَّر الأبيات ليبحث عن حقيقة حالة الدمع المتــدفق بين المرض والقذى (أقذى بعينكِ أمْ بالعين عوَّارُ؟) والذي سرعان ما نفته، وأضربت عنه مقررة أن السبب بعيد عن ذلك.

ثم أفصحت عن حقيقة المصاب بعد أن أخذت قلــوب الــسامعين بهــذا الاستفهام الذي لم يغادرهم إلا وهم أسرى سياقها وسبايا أســلوبها (تبكــي لصخر).

ثم حولت هذه الدموع التي تفجرت من عينيها لتصبح سيلًا يفيض عن طريق الصورة التشبيهية التي أوشــكت الأداة (كــأن) فيهــا علــى مــزج الصورتين في صورة واحدة:

كــأنَّ عينــي لــذكراهُ إذا خطــرتْ فيضٌ يسيلُ على الخــدَّين مــدرارُ

رابعاً: <u>التشبيب</u>

من المعاني الإنسانية المشتركة التي تخاطب الوجدان، وتجــذب ذهــن المخاطب وتحقق سيطرة مؤقتة في الأسلوب التشبيب، والغزل، وذكر أخبــار الأحباب وبكاء الأطلال، وهو ما حدا بكثير من الشعراء إلى تصدير قصائدهم به رغبة في تحقيق الإنصات وجذب القلوب، وتحقيق الذيوع والانتشار.

وعلى قدر ما يستطيع الشاعر أن يجمع في قصيدته من وسائل سيطرة الأسلوب على قدر ما يكتب لقصيدته من الذيوع والانتشار وتعلــق القلــوب والأسماع بها وهو نهج العبقري من الشعراء وفي خطب الخطباء الذين كان لهم قصب السبق في مضمار الشعر، والخطابة.

و(مذهب الشُعراء أن تجعل التَّشبيب في صدر كلامها مقدّمة لما تحاوله في خطابها حتَّى أنَّ الشِّعر الَّذي لا تشبيب له ليلقَّب بالحصا وتسمَّى القصيدة منه البتراء وإنَّ قائلها ليخرج عند أهل العلم بالأشعار عن عمل يــدخل فيــه الموصفون بالاقتدار والمنسوبون إلى حسن الاختيار)

(ومن هذه الناحية علل أبن قتيبة بناء القصيدة العربية: من استهلالها بالبكاء على الأطلال ثم الانتقال إلى وصف الرحلة، والنسيب: " ليميل نحــوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه وليستدعي إصغاء الأسماع لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد مــن محبــة الغــزل

وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضـــارباً فيه بسهم حلال أو حرام؛ فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقَّب بإيجاب الحقوق.. "

فابن قتيبة يؤمن أن بناء القصيدة على هـــذه المقـــدمات إنمـــا كانـــت تستدعيه الرغبة في لفت الانتباه، وإشراك السامعين في عاطفـــة الـــشاعر، وهي عاطفة تسهل المشاركة فيها لأنها قريبة إلى القلوب جميعاً. (١)

وتتجلى عبقرية الشاعر المتمكن حين يجمع كثيراً من وسائل السيطرة في القصيدة بحيث لا يخرج المخاطب من أثر حتى يدخل فـــي غيـــره حتـــى ينتهي هذا المبدع من عمله وقد علقت قصيدته بالقلوب فتستحق أن تعلَّـــق بأسمى مكان وعندها تلقَّب بالمعلقة.

تأمل كيف استطاع امرؤ القيس أن يجمع في قصيدته بين بكاء الأطلال، والتشبيب بالمحبوبة، ومغامراته وفجراته، والفخر، والفروسية وهي معـــانٍ تستهوي المخاطبين كل ذلك في حسن النسج وبراعة الصورة وحسن البديع فقد ابتدأ على عادة القوم ببكاء الأطلال فقال (الطويل):

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّلَـــلُ البـــالي وهل يَعمن مَنْ كان في العُصُرِ الخالِي

وهَـــلْ يَعِمـــنَ إلاَّ سَـــعِيدٌ مُخَلَّـــدٌ قَلِيـــلُ الهُمُـــومِ مـــا يَبِيـــتُ بأوْجَـــالِ

وهلْ يَعِمنَ مَن كان أحـــدثُ عَهْـــدِهِ ثلاثـــينَ شَـــهْراً فـــي ثلاثـــةِ أحْـــوالِ

دِيارٌ لِسَلْمَى عافِياتٌ بـــذِي الخـــالِ ألَحَّ عَلَيْهـــا كُـــلُّ أسْـــحَمَ هَطَّـــالِ (٢)

ثم انتقل في حسن تخلص من بكاء الأطلال إلى التشبيب وقد علقت بفيه آذان السامعين وتوجهت إليه قلوبهم فيزيدهم كلفاً بمعانيه عندما يذكر صفات المحبوبة في براعة التصوير وجمال النسق:

لَيـــالِيَ سَـــلْمَى إذْ تُريـــكَ مُنَـــصَّباً وجِيداً كجِيدِ الرِّئْمِ لـــيس بمِعْطَـــالِ

لَطِيفَةُ طَيِّ الكَشْحِ، غَيْـــرَ مُفاضَـــةٍ إذا انْحَرَفَتْ مُرْتَجَّـــةٌ غَيْـــرُ مِتْفَـــالِ

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ إحسان عباس/ ١/ ١١٢/ الطبعة الرابعة ١٤٠٤ه – ١٩٨٣م/ الناشر: دار الثقافة/ بيروت – لبنان.

(٢) ديوان امرئ القيس/ صـــ: ١١٧/ ت: مصطفى عبد الشافي/ الطبعة الخامسة/ سنة ١٤٢٥ هـــ ٢٠٠٤م/ دار الكتب العلمية– بيروت.

كَأنَّ علـــى لَبّاتِهـــا جَمْـــرُ مُـــصْطَلٍ أصابَ غَضاً جَزْلاً وكُـــفَّ بـــأجْزالِ
يُضِيءُ الفِراشَ وَجْهُها لِـــضَجيعِها كمِصْباح زَيْتٍ في قَنادِيلِ ذُبّـــالِ (١)

ومن جميل الصور التي ضمته قصيدته تـــشبيه النجـــوم البعيـــدة فـــي السماء والتي يظهر نورها عن بعد بمـــصابيح الرهبـــان التـــي يوقـــدونها للقادمين حتى يهتدوا إليهم وهي صورة تتسم بالبراعـــة مـــن حيـــث إنهـــا اشتملت على لون من الغرابة وحسن المأخذ وفيها جدة، وطرافة لكونه سبق إليها يقول:

نَظَـــرْتُ إليهـــا والنُّجُـــومُ كَأنَّهـــا مَصابيحُ رُهْبانٍ تُـــشَبُّ لِقُفَّـــالِ (٢)

ثم إنه لم يقطع حبل الصلة الوثيق بينه وبين الـــسامعين فانتقـــل إلـــى الحديث عن غدراته وفجراته وهي أمور كانت تستهوي السامعين بين ناقـــدٍ له كاره لهذا الفعل الذميم وبين معجب بشجاعته، وجرأته يقول الشاعر:

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ مـــا نـــامَ أهْلُهـــا سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً علـــى حـــالِ
فقالتْ سَباكَ اللّـــهُ إنَّـــكَ فاضِـــحِي ألَسْتَ تَرَى السُّمّارَ والنَّاسَ أحْوالِي
فقلتُ يَمِـــينَ اللّـــهِ أبْـــرَحُ قاعِـــداً ولَوْ قطَّعُوا رَأسِي لَدَيكِ وأوْصـــالِي
فلمَّا تنازعْنَـــا الحـــديث وأسْـــمَحَتْ هَصَرْتُ بفودَيْ ذِي شماريخ مَيَّـــالِ
فصِرْنَا إلى الحُـــسْنَى ورَقَّ كلامُنَـــا ورُضْتُ فذلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذْلالِ (٣)

ولا ننسى دور الحوار في هذه الأبيات بوصفه عاملًا من عوامل سيطرة الأسلوب لما هو معلوم من قوة الأثر لتجـــاذب أطـــراف الحـــديث ومتابعـــة المتحاورين لاسيما في سياق الصبوة والعـــشق والأخـــذ والـــرد والـــصدود والقبول مع براعة الشاعر في اختيار الألفاظ التي توظـــف الحـــواس فمـــن التعبير بالسمو الذي يوحي بالارتفاع، ودلالته على نهوضه من مكانه إليهـــا في حذر، وشيئاً بعد شيء كي لا يشعر به أحد، وتشبيهه البارع لهذه الحركة المنتظمة الرقيقة بحباب الماء الذي يعلو بعضه بعضاً في ملامـــسة رقيقـــة وعلى مهل، وبعد أن مسَّ أهلها النوم.

(١) ديوان امرئ القيس/ صـــ: ١١٧.
(٢) ديوان امرئ القيس/ صـــ: ١١٧ وما بعدها.
(٣) ديوان امرئ القيس/ صـــ: ١١٨.

كما صعَّد هذا الأثر للأسلوب المتمكن من السامعين المسيطر على حواسهم عن طريق القسم الذي بلغ الغاية في الدلالة على الإصرار (يَمِينَ اللّهِ أبْرَحُ قاعِداً) مع هذا الافتراض المتعالي على الخوف المدِّل بالشجاعة المنبئ عن شدة الشوق (ولَوْ قطَّعُوا رَأسِي لَدَيكِ وأوْصالِي).

ثم إنه لم يكتف باليمين التي تعكس الإصرار على الفجور بل تمادى ليحلف كاذباً معلناً كذبه في يمينه بأن القوم قد ناموا فلم يبق منهم متحدث ولا مصطلي يجلس بجوار ناره.

حَلَفْتُ لهـا باللّـهِ حَلْفَـةَ فـاجِرٍ لنامُوا فما إنْ مِن حديثٍ ولا صـال
وصِرنا إلى الحسنى ورقَ كلامنـا ورُضتُ فذلتْ صَعْبَةَ أيَّ إذلال (١)

ثم انتقل في سلاسة وحسن تخلص لا يشعر به السامع إلى الفخر بنفسه وببطولاته وفروسيته وصبواته:

كَـأنِّي لَـمْ أرْكَـبْ جَـواداً لِلـذَّةٍ ولَمْ أتَـبَطَّنْ كاعِبـاً ذات خَلْخـالِ
ولَمْ أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ، ولَـمْ أقُـلْ لِخَيْلِيَ: كُرِّي كَـرَّةً، بَعْـدَ إجْفَـالِ
ولَمْ أشْهَدِ الخَيْلَ المُغِيرَةَ بالـضُّحَى على هَيْكَلٍ نَهْدِ الجُزارة جَـوَّالِ (٢)

وهو في ذلك لا يعدم الصورة الرقيقة الدقيقة البارعة التي يستعيد بها قوة السيطرة في الأسلوب الذي يشعل بها عقل السامع تارة ووجدانه تارة ويأخذه من جانب الإعجاب بالمعنى تارة ومن جانب الإعجاب بالنسج أخرى وثالثة باللفظ ورابعة بألوان البديع، وخامسة، وسادسة لا تكاد تنتهي دفقة من التأثير المسيطر حتى تدركها أخرى، وتتلوها يقول:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّيْـرِ، رَطْبـاً ويابِـساً لَدَى وَكْرِها، العُنَّابُ والحَشَفُ البالِي (٣)

ثم يدرك الشاعر أنه بلغ في النفوس لحظة الحسم وأقوى درجات السيطرة فيطبع عندها المعنى الذي يسعى إليه في وجدانه وهو الفخر والإدلال بجاهه ونسبه في الملوك وسعيه لاسترداد هذا المجد:

فلَوْ أنَّ ما أسْـعَى لأدْنَـى مَعِيـشَةٍ كَفانِي، ولَمْ أطْلُبْ، قَلِيلٌ مِن المـالِ

(١) ديوان امرئ القيس/ صـ: ١١٨.
(٢) ديوان امرئ القيس/ صـ: ١١٨.
(٣) ديوان امرئ القيس/ صـ: ١١٩.

ولكنَّمـــا أسْـــعَى لِمَجْـــدٍ مُؤَثَّـــلٍ وقدْ يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أمْثالي (١)

ومن التشبيب المسيطر بطبيعة الموضوع وعبقرية النسج قول النابغـة (الكامل):

تجلـــو بقـــادمتي حمامـــة أيكـــة بـــــرداً أسِـــفَّ لثاتُـــهُ بالإثْمـــدِ
كـــالأقحوانِ غـــداة غـــبّ ســـمائِه جفـــتْ أعاليـــه وأســـفلُهُ نـــدي
زعـــم الهمـــامُ بـــأن فاهـــا بـــاردٌ عـــذبٌ مقبلـــه شـــهي الـــورد
زعـــم الهمـــامُ ولـــم أذقـــه أنـــه يشفى بريا ريِّقها العَطش الصدي (٢)

وتتمثل خاصية السيطرة في هذه الأبيات في هذا الوصف البارع الـذي استغل الشاعر فيه إمكانات اللغة في رسم صورة بارعة للمحبوب كما تترآى في وجدانه فالتعبير بلفظ (تجلو) الذي يوحي بالكشف والظهور أراد: تجلـو بشفتيها إذا تكلمّت أو ضحكت.

و هنا شبّه شفتيها بقادمتي حمامةٍ لرقتها. وأسفّ لثاته بالإثمد كـانوا يجعلون الكحلَ في أصول الأسنان ليشرق السواد مع البياض. وكان ذلك مما يستحسنونه ولا سيما إذا كانت اللّثةُ بيضاءَ غيرَ حمراء فكرهـوا أن تكـون اللّثةُ بيضاءِ كالأسنان، فغيرَّوها بذلك.

ثم إنه لم يكتف بهذه الصورة وإنما زادها توضيحًا إمعاناً في تجميلهـا بقوله: كالأقحوان، رجع إلى وصف الثَّغر فوصفه بالأقحوان لبيـاض نـوره وطيبه.

ثم إنه قيَّد الصورة بما يضفي عليها لمسة ساحرة بقوله " جفَّت أعاليه وأسفله ندى " شبّهه بالأقحوان في هذه الحال، وذاك أنّ الأقحوان إذا كان في غبِّ مطر ولم تطلع عليه الشمس فهو ملتفٌّ مجتمعٌ غير منبسط، وكذا كـلُّ الأنوار يكره أن يشبّه الثّغر به في هذه الحال فيكون كالمتراكب بعضه علـى بعض، فشّبهه بالأقحوان إذا أصابته الشمس فقال: " جفّت أعاليـه "، يريـد انبسطت وذهب تجعّدها. وقال: " وأسفله ندٍ " فاحترز مـن أن يكـون جـفّ

(١) ديوان امرئ القيس/ صـــ: ١١٩.
(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٤٧ طبعة مطبعة الهلال بمصر ١٩١١ م.

وذوي كلُّه فقال: " وأسفله ندى " وهو ما أكدّ سيطرة المعنى بترافقه مع عبقرية النسج وحسن التصرف.

ومما يثير وجدان المخاطب ويحقق سيطرة الأسلوب بكاء الأطلال والوقوف على الآثار وهو أمر مقرر لدى العربي معروف الأثر لدى العامة قال زهير (الطويل):

أمْن أم أوفى دمنُة لم تكلّم بحومانِة الدّراج، فالمتثلم

فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لربعها ألا عمْ صباحاً أيها الربع واسلمِ (١)

وقف زهير على الأطلال وهو أمر يستهوي السامعين ويلفت أسماعهم وينبه عقوله ويحرك وجدانهم فقلما تجد سامعاً ليس له حبيب مفارق يرى في حديث الشاعر صداه، وكأنه يبعث ذكراه في نفسه بما يثيره من ذكرى محبوبه وآثاره.

ثم إن زهيراً طرح تساؤله، على عادة القوم في خطاب ما لا يعقل من الديار، والآثار وهو أمر يبث الحياة في الجمادات التي تتكلم عنها الذكريات، وهو قطعاً لا ينتظر جوابًا من طلل ولذا قال (لم تكلم) ونفي الكلام عنها على سبيل الاستعارة المكنية بتشبيهها المضمر بالإنسان عن طريق وصفها بصفة الحي وهي الكلام.

وإمعانًا في بث الحياة في هذا الطلل البالي لما له من مكانة في قلبه حيَّاه تحية العقلاء (ألا عمْ صباحاً أيها الربع واسلمِ) وناداه بنداء العاقل ثم حذف أداة النداء دليلًا على عمق ما في قلبه من مشاعر صيرته في حنايا القلب قريباً لا يحتاج لأداة نداء البعيد في خطابه له.

وهذا الخطاب النابع من عمق الماضي في وجدان الشاعر يكشف عن حالته النفسية المتوجعة من فراق الأحبة المتحفزة للاستقرار، بدلالة السلام على الدمنة الشاخصة، وتحيتها والدعاء لها.

وكما وقف على هذه الأطلال استوقف صحبه ليستدعي ذكرياته، ويبثها غيره، وهي أمور تجد صداها في قلوبهم فهم يشعرون بأنه يعبر عن مشاعر

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٦٤ ت حمدو طماس/ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٥ م/ دار المعرفة بيروت.

في خلجات نفوسهم لم يستطيعوا هم مثله التعبير عنها قال زهير مستوقفاً صحبه (البسيط):

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم (١)

كأنه لما وقف على الديار عرته روعة ذهل بها عن رؤية ما حصل لها من التغير فقال: " لم يعفها القدم " ثم ثاب إليه عقله وتحقق ما هي عليه من الدروس، فقال: بلى عفت وغيرها الأرواح والديم. ويسمى في البديع الرجوع – وهو أن يعود المتكلم على كلامه السابق بالنقض لنكتة.

خامسًا: عبقرية الصورة.

من عوامل سيطرة الأسلوب عبقرية الصورة.

لطالما كان للصورة أثر عميق في النفس فالتشبيه،والتمثيل، والاستعارة، والكناية من أقوى الوسائل التي تحقق التواصل،وتقرر المعنى حيث تذهب صورة العبقري بالعقول كل مذهب حين يفيض بها الوجدان المفعم وتفعل فعلها في نفس المتلقي ووجدانه مسيطرة على حواسه حتى تكتمل الصورة.

وتأثير الصورة مما اتفق عليه الشعراء، والنقاد وكل أصحاب فنون القول مؤكدين على كثرة فوائده، وعمقها (لأنك إذا أردت تشبيه الشيء بغيره فإنما تقصد به تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به،أو بمعناه،فيستفاد من ذلك المبالغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه من مدح،أو ذم،أو ترغيب،أو ترهيب،أو كبير،أو صغير،أو غير ذلك من الوجوه التي يقصد بها التشبيه، وترد للإيجاز أيضا،أو للاختصار في اللفظ من تعديد الأوصاف الشبهية،وترد للبيان، والإيضاح أيضا، فهذه مقاصد ثلاثة)(٢).

ولاسيما إذا كان صدور التشبيه من واقع البيئة التي يحيي فيها المبدع والذي يجعله أكثر إدراكا لمفردات هذه البيئة، فيختار الصورة التشبيهية التي

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٥٩.

(٢) ينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز/ يحيي بن حمزة العلوي جـ ١ص: ٢٧٤/ دار الكتب العلمية – بيروت–١٤٠٢ هـ ١٩٨٣م.بتصرف.

تحكي هذه المفردات بحسب قدرته الإبداعية على الرصد، والاستيعاب، والتصوير كما أن المتلقي إذا، وافقت الصورة التشبيهية معارفه الحياتية، وبيئته الطبيعية استطاع خلال الصورة أن يفهم مفردات المعنى الذي يقصده المبدع بالإضافة إلى أنها تعطي مدلول الصورة امتدادا عبر الزمان،والمكان.

فالتشبيه ينقل الصورة من مجرد الأخبار التي تحتمل الصدق والكذب إلى تخيل مشاهدة أحداثها،ووقائعها ؛ كما قال الإمام عبد القاهر (إن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم ﴿ قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (١) والشواهد في ذلك كثيرة،والأمر فيه ظاهر)(٢)

وقد استخدم النبي ﷺ الصورة لتقرير حقائق الدين، وتقريب الغيب المنتظر فمن إلحاق الغيبي المجهول بالمشاهد المعروف عن طريق التمثيل تقريبًا للصورة من الأذهان لتتقرر في الأذهان، وتثبت في القلوب مع حوار يجلى أبعاد الصورة، ويؤكد كونها للمؤمنين حتى تصير حافزًا للعمل والاجتهاد؛ قول الرسول ﷺ فيما جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْه – عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ] رواه مسلم (٣)

هذا، وتأمل تلك الواقعة بين جرير وعدي بن الرقاع، وكيف سيطرت صورة عدي على عقل جرير فتابعها حتى بلغ مع عدي منتهاها: (قال جرير سمعت عدي بن الرقاع ينشد (الكامل):

(تُزْجِي أَغَنَّ كأنّ إبرة رَوْقِه...)

فرحمته من هذا التشبيه فقلت بأي شيء يشبهه ترى فلما قال:

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ ١٢٦/ ت: محمود محمد شاكر/ الناشر:مطبعة المدني/ الطبعة الأولى/١٤١٢هـ ١٩٩١م.

(٣) صحيح مسلم كتاب (جـ ٤ صـ ٣١٨٨ الجنة وصفة نعيم أهلها) حديث (١١

(قلمٌ أصاب من الدَّواةِ مِدادَها...) رحمت نفسي منه) (١) والذي قالــه جرير صادر من خبير يدرك مواطن الجمال، وطرافة الصورة، وقيمتها الفنية التي أبدع عدي في اختيارها.

وتأمل الصورة التي رسمها كعب بن زهير لمحبوبتــه فــي قــصيدته المشهورة كيف مزجها باللوحة الطبيعية في البيئة لعلمه بمدى هــذا الأثــر، وسرعة علوقه بالقلب، ومعه المعنى الذي يريد تقريره، وهو يــسعي إلــى السيطرة على وجدان السامعين خلال هذا الطرح قبــل أن يقــرر مــا يريــد (البسيط):

وما سعادُ غــداة البَــيْنِ إذ رحلــوا إلاّ أغنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مكحــولُ
تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ كأنَّــهُ منهــلٌ بــالرَّاح معلــولُ
شُجَّتْ بذي شبمٍ من مــاءِ محنيــةٍ صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مــشمولُ
تنفي الرِّياحُ القذى عنــه وأفرَطــه من صوبِ ســاريةٍ بــيضٌ يعاليــلُ
وَيلُ امِّها خُلَّة لــو أنَّهــا صــدقتْ بوعْدِها أو لو انَّ النُّــصحَ مقبــولُ

ومن جميل الصورة المؤثرة عند امرئ القيس وصفه البــارع الــدقيق لليل، وطوله في أسلوب مسيطر يؤكد ما نحن بصدده (الطويل):

وليل كموج البحر أرخــى ســدوله علــي بــأنواع الهمــوم ليبتلــي
فقلــت لــه لمــا تمطــى بــصلبه وأردف أعجــازاً ونــاء بكلكــل
ألا أيها الليــل الطويــل ألا انجلــي ومــا الإصــباح منــك بأمثــل
فيا لــك مــن ليــل كــأن نجومــه بكل مغار الفتل شــدت بيــذبل (٣)

(١ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ ج ٩/ ص ٣٥٩// ت: سمير جابر/ الطبعة الثانية/ الناشر: دار الفكر – بيروت.
(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – (بانت سعاد) لابن حجة الحموي ص ٢٨/ ت د: علي حسين البواب/ طبعة دار المعارف – الرياض – سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م. وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ ج ١٧/ ص ٨٦.
(٣) ديوان امرئ القيس/ ١٢٠.

روعة البيان وجمال التصوير ورقة التعبير وقوة التأثير مع هذه الشخصية الفنية الكاملة التي تبرز من هذه الأبيات في وضوح وقوة وجمال تحقق سيطرة كاملة على حواس المخاطب الذي يدرك مواطن الجمال، وأسباب الجلال في البناء التعبيري.

قال الإمام عبد القاهر: (ومما هو أصلٌ في شرفِ الاستعارة أنْ تَرى الشاعرَ قد جمعَ بين عدَّة استعاراتٍ قصْداً إلى أن يُلحقَ الشَّكلَ بالشَّكْلِ وأن يُتمَّ المعنى والشّبهَ فيما يُريد. مثالهُ قولُ امرىءِ القيس – الطويل –:

(فقلتُ لهُ لمّا تَمطَّى بصُلْبِهِ وأرْدَفَ أعْجَازاً ونَاءَ بكلكَلِ)

لما جعلَ للَّيل صُلباً قد تمطَّى به ثنّى ذلك فجعلَ لهُ أعجازاً قد أردفَ بها الصُّلبَ وثلَّث فجعلَ له كلكلاً قد ناءَ به فاستوفى له جملة أركان الشَّخص وراعَى ما يراهُ النّاظرُ من سوادِه إذا نظر قُدّامَه وإذا نَظر إلى ما خَلْفَه وإذا رَفع البصرَ ومَدَّده في عُرضِ الجَوّ) (١)

فالأبيات تصوِّر الليل الرهيب، وظلماته كالموج اللجي، وقد أقبل على الشاعر، فأثار في نفسه الذكريات، وهاج كوامن الأحزان، وبعث الهموم من مرقدها، وترك النفس حيرى مشتتة.

واستمرت صور الماضي وأحداث الحاضر تتراءى أمام عينيه يتذكرها، ويذكرها، يتذكر حياته اللاهية العابثة في صباح، وهذه الآمال والآلام التي تعتلج في صدره، وذكريات الحب، والأحباب المؤثرة الباقية.

وطال الليل على الشاعر وطال، وامتد ؛ فرسم لطوله هذه الصورة البارعة التي تجدها في البيت الثاني، فكأنه يتمطى بصلبة، وكأن أعجازه وأواخره يردف بعضها بعضاً، وكأنه يقع بصدره على المهمومين والمحزونين ليوسعهم ألماً وشقاء.

ويتمنى الشاعر أن يذهب الليل بظلمته ورهبته، وأن يشرق الصبح بضوئه وجماله ولكنه يعود فيتذكر أن أحزانه كامنة في نفسه فلن يسرِّي عنها إشراق الصباح، ولا ضجيج الحياة في أول النهار.

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني/ صـ: ٧٩.

وتستمر الصور، والذكريات تطوف بخيـال الـشاعر، وأمـام عينيـه اليقظتين، والليل كما هو لم يذهب، ولم يطلع الصباح الجميل، وكأنه لا يريد أن يذهب بل كأنه مشدود بحبال قوية شدت بصخرة من صخور هذا الجبـل الضخم.

صور جميلة لا يعدل جمالها جمال، وخيال يقظ مشبوب لا يماثلـه فـي استنباط دقائق التصوير خيال.

قال ابن طباطبا العلوي:(أن العرب أودعت أشـعارها مـن التـشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها،وأدركه عيانها،ومرت به تجاربها وهـم أهـل وبر صحونهم البوادي وسقوفهم السماء فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها وفي كل واحدة منهما في فصول الزمان على اختلافها) (١).

وعلى ذلك التصوير بالاستعارة، والمجاز، والكنايـة فمـن التـصوير بالكناية من قصيدة كعب بن زهير يمدح قريشاً في قصيدته (بانـت سـعاد) (البسيط):

لا يقــعُ الطَّعــنُ إلا فــي نحــورهم وما لهم عن حياضِ الموت تَهْليـلُ (٢)

تأمل كيف صوَّر الشاعر شجاعة القوم، وإقبالهم على أعدائهم، وأنهـم لا يولون الأدبار، وأن السيوف تقع في وجوههم ورؤوسهم لإقبالهم، ولا تقع في أقفائهم، وظهورهم فكنى بصورة الطعن فـي النحـور عـن الـشجاعة والبسالة.

روي أنه لما أنشد هذا البيت نظر النبي ﷺ إلى من في حـضرته مـن قريش يومئ إليهم أن اسمعوا) (٣)

ومن التصوير بالاستعارة في رائعة عنترة (الكامل):

هَلْ غَـادَرَ الْـشُّعَرَاءُ مِـنْ مُتَـرَدَّم أمْ هَل عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّم (٤)

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي/ ص: ١٠/ ت: طه الحاجري ومحمد زغلول/ طبعة المكتبة التجارية – القاهرة – ١٩٦٥م.
(٢) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن حجة الحموي (بانت سعاد) ص ٦٤.
(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) ص ٦٤.
(٤) ديوان عنترة العبسي ص: ٨٠/ الطبعة الرابعة/ مطبعة الآداب – بيروت سنة ١٨٩٣.

ففي قوله:"متردم" استعارة تصريحية أصلية، لأن أصل التردم:هو الموضع الذي يسترقع ويستصلح، لما اعتراه من الوهن والوهى [١] فاستعار هذا المعنى اللغوي، للمعاني والقصائد الشعرية التي تحتاج إلى تنقيح وتهذيب٠ ووجه الشبه: الإصلاح في كل.

وهذه الصورة الاستعارية بما لها من دلالة، تصور لنا بوضوح مدى احتياج القصائد الشعرية إلى التهذيب والتنقيح، كما يفعل في الديار لإصلاح ما اعتراها من الوهن والخراب.

وتبدو عبقرية الصورة وسيطرتها في خاصية المزج بين المعقول من فن الكلام والمحسوس من البقاع والأماكن.

و زاد الأسلوب سيطرة بهذا الاستفهام الذي يظهر الحيرة، والعجب في قوله: " أم هل عرفت"، والذي يكشف عن حالة الوجد، والذهول لمرأى أطلال الحبيب، وما أثارته في نفسه من شجن، وشوق، وما هيجته من هوى وعشق.

ولا ننسى عبقرية انتقاء الألفاظ، حيث اختار الفعل "عرفت"،ولم يقل: "علمت"،أو ما يرادفها لأن العرفان يدل على الإحاطة بدقائق المعروف ففيه تأكيد على إحاطته بكل ما يتعلق به، وهذا شأن المحب الذي يتعلق بكل شيء يخص من يحبه، وقد ذكر أبو هلال العسكري الفرق بين العلم، والمعرفة فقال:" إن المعرفة أخص من العلم، لأنها علم بعين الشيء مفصلا عما سواه، والعلم يكون مجملا ومفصلا". [٢]

ومن التصوير بالاستعارة أيضاً في قول عنترة (الكامل):

يا دارَ عَبلَةَ بالجَواءِ تَكَلَّمي وَعِمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاسلَمي[٣]

(١) ينظر:اللسان جـ١٢ص٢٣مادة(ردم) وينظر ديوان عنترة ص ٨٠.
(٢) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص ٨١- ت/ أبي عمرو عماد زكى الياروي – المكتبة التوفيقية.
(٣) الجو: الوادي والجمع الجواء، و الجواء فى البيت موضع بعينه. ينظر:لسان العرب جـ١ص٥١-مادة (جوأ)

تتمثل سيطرة الأسلوب في بيت عنترة في عدة مظاهر منها: المحادثــة الطللية ببث الحياة في الموجودات عن طريق نداء الطلل " يــا دار عبلــة"، والغرض منه التحسر والتوجع على فراقها، والبعد عنها.

ومنها التصوير بالاستعارة في قوله: يا دار عبلة بالجواء تكلمــي"، وهي استعارة مكنية، حيث شبه الدار بإنسان، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه و هو النداء على ســبيل الاســتعارة المكنيــة، ورشــح للاستعارة بقوله: (تكلمي).

وهذه الصورة الاستعارية بما لها من دلالات وإيحاءات تبث الحياة في الطلل ليتجاوب مع شعور المحب الحزين

ومن مظاهر سيطرة الأسلوب في البيت ألوان البديع وأثرها في المعنى ومنها: التصريع" بين قوله: "تكلمي" في نهاية الشطر الأول و "اسلمي" فــي نهاية الشطر الثاني الذي له دور فعال في تحقيق الانسجام، والتناغم الــذي يجذب السمع، ويحقق الإنصات ويقطع المخاطبين عن شواغلهم.

وبين اللفظين أيضا جناس ناقص أحدث جرسًا جميلًا في السمع، ووقعا مؤثرًا في القلب.

كما أن فيه ائتلافــا بــين الألفــاظ التــي اســتعملها عنتــرة، فتأمــل قوله:"الجواء"،و"عمي صباحا"،و"دار عبلة"،و"اسلمي "،فهــذه ألفــاظ بدويــة صحراوية،متداولة من وادٍ واحد.

ومن أقوى وسائل سيطرة التصوير البياني تتابع الصور وتناسقها فيما بينها لتعطي لوحة متكاملة يتملاها الوجدان فتأخذه بأبعادها كل مأخذ.

تأمل تتابع الصور البيانية ودقتها، وانتظامها في قول عنترة (الكامل):

وَمُدَجَّــجٍ كَــرِهَ الكُمــاةُ نِزالَــــهُ لا مُمعِـــنٍ هَرَبــــاً وَلا مُستَــسلِمِ
جادَت لَهُ كَفّــي بعاجِــلِ طَعنَــــةٍ بِمُثَقَّفٍ صَــــدقِ الكُعــــوبِ مُقَــــوَّمِ
فَشَكَكتُ بِالرُمــحِ الأَصَــمِّ ثِيابَــــهُ لَيسَ الكَريمُ عَلى القَنــا بِمُحَــــرَّمِ [1]

وتبدو عبقرية عنترة في التعبير بــ(المدجج) وهو: التام السلاح، وفي هذا كناية عن تمام استعداد خصمه للحرب، و الذي يوحي، ويقرر في نفوس

(١) ديوان عنترة ص ٨٢.

المخاطبين شجاعة عنترة، وقوته بطريق غير مباشر خلال هذه الكناية حيث أنه يقهر الأبطال في تمام قوتهم، واستعدادهم، وليس عن ضعف منهم، ولا عجز، ولا يأخذهم على حين غرة، وفي هذا فضل إدلال بقوته، وشجاعته.

صورة أخرى بالكناية في قوله:(كره الكماة نزاله)، كناية عن قوة بطشه بخصومه ووحشيته في القتال وصعوبة التغلب عليه، وفي هذه الكناية تعظيم لشأن من يتغلب عليه.

زاد المعنى تأكيدًا على قوته وإدلالاً بشجاعته بالتعبير بلفظ الجمع في قوله:(الكماة)، ليوحي بأنه الخصم الذي قهره معروف لدى الفوارس جميعاً بقوته، وشدة بطشه.

وفي التعبير بقوله:(جادت)، استعارة تصريحية تهكمية،تمليحية، فالجود في الأصل: يستعمل في المدح، والأشياء الحسنة، ولكن عنترة استعاره هنا لقتل هذا الخصم، على سبيل التهكم به، والتمليح بالإتيان بشيء قبيح في صورة شيء مليح، للاستظراف.

فالشيء قد يستعار لضد معناه، أو نقيضه، بتنزيل التضاد، أو التناقض بين المعنيين منزلة التناسب بينهما(١).

وهذه الصورية الاستعارية بما لها من دلالة، تصور لنا بوضوح مدى سخرية عنترة واستهزائه بخصمه، وعدم المبالاة بعدته وسلاحه.

وفي التعبير بقوله:(كفي) مجاز مرسل، علاقته الجزئية، حيث عبر بالجزء وهو (الكف) وأراد الكل، وهو نفسه.

وتكمن بلاغة هذا المجاز في أن الكف لها مزيد اختصاص بالمعنى المراد، وهو القتل لأن الكف هي التي تتحكم في توجيه آلة الحرب دون غيرها من أجزاء الجسم.

وفي قوله:(بعاجل طعنة)، تقديم للصفة على الموصوف، وهذا التقديم لبيان أهمية الصفة، ويوحي أيضًا بسرعة طعنه، حيث لم يستغرق وقتًا طويلاً مع عنترة.

(١) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي ص١٦٢.

وفي التعبير بقوله:(ثيابه) مجاز مرسل، علاقته المجاورة، لأن الــشك يكون للجسم وليس للثياب، وإنما عبر بالثياب من باب المجاورة والقرينــة هي: أن الطعن لا يكون للثياب، لأن شكها لا يترتب عليه الموت.

وفي تقييد الشك بالثياب، إشارة إلى سهولة قتله رغــم قوتــه وتمــام سلاحه، فمجرد أن الرمح شك ثيابه اخترق جسده فسقط قتيلاً.

وقوله في الشطر الثاني:(ليس الكريم على القنا بمحرم)، كنايــة عــن سخريته، واستهزائه به، فبعد أن أسقطه قتيلاً، يستهزئ به ويــسخر منــه، ويقول له:إن دم الكرام، ليس محرمًا على الرماح، فهــي مولعــة بــالكرام، لحرصهم على الإقدام.

وفي قوله:(على القنا) مجاز مرسل، علاقته السببية، حيث عبر بالسبب وهو (القنا) وأراد المسبب وهو (القتل) وأصل الكلام: ليس الكريم على القتل بمحرم، وإنما عبر بـــ (القنا) لأنها السبب في قتله.

ويمكن أن تكون العلاقــة الآليــة، حيــث عبــر عــن القتــل بآلتــه، وهي(القنا).وفى التعبير بالمجاز إشارة إلى بلوغ سلاح عنترة لرقاب السادة.

والشطر الثاني كله(ليس الكريم على القنا بمحرم)، يوحي بأن عنتــرة يرفع من قدر خصمه، فيدعوه كريما، ويخبر عنه، بأنه مات ميتة الأبطــال الشرفاء في ساحة القتال،وفى ذلك تهكم بخصمه،وإدلال بقوته،وبيان بأن له اليد الطولى في القتال التي تنال السادة ذوي المكانة والمال والنفوذ،والــذين يكونون عادة في منعة من قومهم،يحميهم فرسانهم وعبيدهم،ومع ذلك يصل سلاح عنترة إلى رقابهم.

المبحث الثالث

من عوامل سيطرة الأسلوب (القصة – الحوار – التكرار – قوة الفكرة – مراعاة الجوانب النفسية)

أولًا: القصة وأثرها في سيطرة الأسلوب.

القصة من أقوى عناصر سيطرة الأسلوب على النفس البــشرية التــي جبلت على حب القص، وتعلقت به،

وللقصة في البيان النبوي دور مهم في مجال التقويم، والتربية، وغرس المفاهيم، وتأصيل مكارم الأخلاق وإيجاد المثل العليا للنماذج البشرية المؤثرة، ولما لها من أثر يواكب فطرتها في مدارج الحياة.

ومن هنا فإن وجود القصة ضمن العمل الإبداعي يحقق له مزيد إنصات، وللمعنى مزيد ثبات، وإن كانت القصة لونًا أدبيًا قائمًا بذاته.

والقرآن الكريم استخدم القصة لجميع أنواع التربية، والتوجيه التي يشملها: تربية الخلق، تربية الوجدان، تربية الجسم، والتربية بالموعظة.

لقد كانت القصة- وما تزال- مدخلا طبيعيّا، يدخل منه أصحاب الرسالات، والدعوات، والقادة، وحتى الهواة إلى عقول الناس، وقلوبهم، ليلقوا فيها ما يريدون، من قيم، وآراء، ومعتقدات.

والقصة في عصرنا الحاضر من «أقوى أجهزة التأثير في قيادة الجماعات البشرية، فلا عجب أن تكون القصة في القرآن ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية، القائمة على الاقتناع العقلي، والاطمئنان القلبي، لما تدعو إليه، من الإيمان باللّه وكتبه ورسله واليوم الآخر. وبهذا تكون القصة القرآنية لها دور فعال في غرس القيم المرغوب فيها في نفوس النشء.

والقصة في البيان النبوي تختلف من ناحية الطول والقصر بحسب ما يمليه مقام الفكرة فقد تقصر كقصة الرجل الذي زار أخا له في قرية فأرصد الله على مدرجته ملك، وقد تطول كقصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار فأغلق عليهم فقالوا أنه لن ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فأخذ كل منهم يدعو الله ويتشفع بما يظنه أفضل أعماله' وهي كما وردت في صحيح مسلم (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي -صلى الله عليه وسلم- « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لاَ غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ فَإِنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ ».(١)

(١) صحيح مسلم/ ج ٨ ص ١٢/ الحديث رقم (٦٧١٤): دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة ــ بيروت.

والقصة تقرر فضل بعض الأعمال على غيرها في إخراج العبد من المحن، وهذه القصص تختلف أيضاً من ناحية البساطة، والتعقيد، والحوار، والقص، ومفاجأة الحلول، أو التبشير بها مما يعجب السامع، ويدهشه كقصة الكفل عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مِرَارٍ وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتُكِ قَالَتْ لَا وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ قَالَ فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ قَالَ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ اذْهَبِي فَالدَّنَانِيرُ لَكِ ثُمَّ قَالَ وَاللَّهِ لَا يَعْصِي اللَّهَ الْكِفْلُ أَبَدًا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكِفْلِ (١)

وتأكيد الراوي على كثرة تكرار الرسول ﷺ للحديث الذي يتضمن القصة دليل على أهمية القصص، والسنة النبوية حافلة بالقصص التي تقرر بأمثلة حية كانت قائمة يومًا ما – فضائل الأعمال والترغيب فيها بذكر حسن عاقبة أصحابها.

وإضافة إلى حب النفوس للقصص الأمر الذي يعطيها سيطرة فعلية تتميز القصة النبوية بكثير من عناصر السيطرة الأسلوبية منها:

١. جودة السبك وحسن النسج والتسلسل المنطقي، والحسن البياني.
٢. تناول الماضي، والمستقبل من خلال قصص الأمم السابقة، وبيان شرائعها، وفضائل أعمالها، وسبب هلاكها ترغيبا، وترهيبا، وتناول المستقبل بالإخبار عن بعض الفتن التي ستحدث ترهيبا من التلبث بها، وهي أمور تتعلق النفوس بمعرفتها لما هو مركوز في الطباع من الرغبة في معرفة ما غاب، وخفي.

(١) ينظر القصة في مسند الإمام أحمد بن حنبل/ ج ٨/ ص ٣٦٩/ الحديث: (٤٧٤٧) المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.وسنن الترمذي/ ج٤ ص ٦٥٧/ الحديث: (٢٤٩٦).

٣. القصص النبوية المتعلقة بالماضي أو المستقبل قصص حقيقية هادفة بعيدة عن شطحات الفكر، وجموح الخيال، وهو ما يزيدها سيطرة خلال القص.
٤. تعتمد في الأكثر على مقدمات خاطفة قصيرة ثم تتابع الأحداث والعقد والمفاجئات التي تقسر الانتباه وتحقق الاستشراف، والإثارة وكلها عناصر سيطرة تزيد من متعة المتابعة، وشدة التركيز، وتثمر الفهم، وعمق التأثر.
٥. تعتمد على الحوار من خلال الشخصيات المحكية التي تكوِّن المشاهد الرائعة، والتي يقرر من خلالها المبادئ السامية، والخلق القويم من غيره.
٦. تهدف في مجملها إلى تربية السلوك القويم، وتزكية ملكة الاعتبار من أحوال الآخرين، وبناء الفرد من الداخل سعيا وراء بناء مجتمع الفضيلة.
٧. تعمل على تأكيد العقيدة، وتعميقها في الوجدان مع غرس القيم الخلقية.
٨. تهدف القصة في البيان النبوي أيضاً إلى إيجاد القدوة والمثل الأعلى[١]

إضافة إلى اشتمالها على هيكل سردي، وشمولها على أسلوب وصفي جيد، وعدم الاستطراد في تصوير الحوادث استطراداً يخرجها عن الجو العام للقصة، والتشويق الذي يدفع بالقارئ إلى متابعة قراءة حوادثها في لهفة إلى النهاية وهذه جملة شروط التميز التي يشار إليها في القصة القصيرة في العصر الحديث.

والقصص في الأدب العربي شعراً، ونثراً حافلة بالقصص المؤثر بحسب قدرة المبدع في النسج والتصوير والقص.

تأمل قصة زرقاء اليمامة وهي امرأة من جَدِيس يعني زرقاء كانت تُبْصِر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام فلما قتَلَتْ جَدِيس طسْماً خرج رجل من طسْم إلى حَسَّان بن تُبَّع فاستجاشه ورَغَّبه في الغنائم فجهَّز إليهم جيشا فلما

(١)ينظر موسوعة نضرة النعيم جـ ١ صـ ١٥٧

صاروا من جَوّ على مسيرة ثلاث ليالٍ صعدت الزرقاء، فنظرت إلى الجـيش، وقد أمِرُوا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبِّسُوا عليها فقالت: يا قوم قد أتتكم الشَّجَر، أو أتتكم حمير، فلم يـصدقوها، فقالـت علـى مثـال (الرجز):

أقـسِمُ باللّـه لقـد دَبَّ الـشَّجَرْ أو حِمْيَر قد أخَـذَتْ شـيئا يجـر

فلم يصدقوها فقالت: أحلف باللّه لقد أرى رَجُل يَنْهَسُ كتْفاً أو يَخْـصِفُ النعل فلم يصدقوها ولم يستعدُّوا حتى صَبَّحهم حَسَّان فاجتاحهم فأخذ الزرقاء فشقّ عينيها فإذا فيهما عُرُوق سود من الإثمِدِ وكانت أولَ من اكتحل بالإثمد من العرب، وهي التي ذكرها النابغة في قوله (البسيط):

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحـيِّ إذْ نَظَـرَتْ إلـى حمـامٍ شـرَاع واردِ الثَّمَـدِ

قالت فيا ليتَ ما هذا الحمـامُ لنـا إلـى حمامتِنـا أو نـصفُه فقـدِ

يحفّهـا جانبـا نيـق وتُتبعـه مثلَ الزجاجةِ لم تكحَّل مـن الرمـدِ

فحـسّبوه فـألفوه كمـا زعمـتْ تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تـزدِ

فكمّلـتْ مائـةً فيهـا حمامتُهـا وأسرعتْ حسبة فـي ذلـك العـددِ

نظرت هذه المرأة إلى حمام مر بها بين جبلين وكان ستاً وستين فقالت ليت لي هذا الحمام ونصفه وهو ثلاث وثلاثون إلى حمامتي فيتم لـي مائـة فنظروا فإذا هو كما قالت، يقول النابغة للنعمان: فليكن نظـرك فـي أمـري وحدسك عما بُلِّغت عني كنظر هذه المرأة وحدسها. (١)

ثانيًا: الحوار

وجود الحوار في الأسلوب يستحوذ على اهتمام المتلقي ويتابعه بشغف حتى يفضي إلى نهاية طبيعية، ومن طبيعة الحوار أنـه يقـوم علـى قـوة الاتصال بين المتحاورين، وهو ما يعطي الأسلوب حيويـة، ونـشاطًا يـدفع السأم ويحقق الإثارة التي تدعم سيطرة الأسلوب.

(١)ينظر مجمع الأمثال المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري/ جـ: ١ ص: ١١٤ تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد/ الناشر: دار المعرفة – بيروت.

والحوار بطبيعته يعطي الموقف حياة، وحركة تقرر المعاني، وتؤكدها في النفوس دون مواجهة للمخاطب قد لا تجد قبولاً عنده، أو تجاوبًا، بينما الحوار يصل إلى ذلك بأسلوب خفي ينساب في مسارب النفس لحظة انفعالها فيقرر ما يريد من المعاني بتمكُّنٍ ويسر.

والحوار في البيان النبوي له وظيفة خطيرة في تقرير الحقائق الغيبية المشاهدة عن طريق الحوار بين شخصيات حقيقية مع تتابع الأحداث، والمواقف التي تؤكدها، وتقررها بالمعلوم المشاهد فعلى سبيل المثال حقيقة موت الموت، أو ذبحه شيء غيبي يصعب تصوره، وقد جسده البيان النبوي في صورة كبش أملح من واقع البيئة يعرفه المخاطبون تمام المعرفة ثم يأتي دور الحوار في تأكيد المشهد وتقريره بين الملائكة بندائهم لأهل الجنة والنار كل على حدهم وتقريرهم لهم بمعرفة المذبوح.

عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ)[١] وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا] رواه مسلم[٢]

ومن الحوار الذي أكسب الأسلوب سيطرة في تناسق بديع مع غيره من أساليب سيطرة الأسلوب ما ورد عن جابر رضي أن رسول الله ﷺ قال فيما يروى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ

(١)الآية ٣٩ سورة مريم
(٢) صحيح مسلم كتاب (الجنة وصفة نعيم أهلها) حديث (٤٠)

الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ[1] فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[2] مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ فَقَالُوا مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ قَالَ أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ قَالُوا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ فَقَالَ فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ] رواه مسلم[3]

والحديث من باب الزهد في الدنيا أراد النبـــي ﷺ أن يقـــرر بـــصورة عملية أن الدنيا لا تساوى عند الله شيئا وقد توصل لهذا بضرب المثل الماثل بينهم بهذه الجيفة التي ألقاها أصحابها زهدا فيها فأمسك بها مسكة تمهـــد لما يرمي إليه من تحقير للممثل له فأمسك بأذن الجدي ثم قال:(أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟) وطريقة عرض الرسول ﷺ زادت هذا المعـــروض حقـــارة زادها استفهامه تحقيرا قرره الصحابة بردهم (ما نحب أنـــه لنـــا بـــشيء)، وأكدوه باستفهامة لخَّصت حجم هذا التحقير (وما نصنع به؟) ثم عاد يقـــرر ويؤكد على هذه الحقيقة مرة أخرى بتقريرهم بها (قال: أتحبون أنـــه لكـــم؟) فإذا انتهي هذا الحوار بالسؤال والإجابة وانتهي إلى نتيجة مؤكدة ثابتة في الأنفس بمدى هوان هذا الجدي الأسك عند أهله وأكد تحقيره له حيا ؛ لأنـــه أسك، وميتا ؛ لأنه جيفة – لا تنفع– نقل كل هذا الاحتقار في النفوس لهـــذه الجيفة السكاء بكامل هوانها ؛ ليقرر بها مدى هوان الدنيا عند الله، وأنها لا تساوى جناح بعوضة..

وتشبيهها بهذه الجيفة تنفير للصحابة منها ؛ لكي لا يتنافـــسوا فيهـــا، وصرف لهم إلى الحياة الكاملة في الآخرة.

وطريقة النبي ﷺ طريقة استدراج وتقريـــر للحكـــم بحقـــارة الـــدنيا، وهوانها، يتوصل إليه المخاطب بنفسه، ويقرره بنتيجة لا يمكنه إنكارهـــا ؛

---

(١) (كنفيه) الكنفان الجناحان... وكنف الإنسان وكنفا الإنسان جانباه وناحيتـــا كـــل شيء كنفاه) العين للخليل بن أحمد جـــ ٥ صـــ ٣٨١ مادة (كنف) و (اكتنفوه) وأحاطوه به... وكنفا ناحيتاه عن يمينه وشماله (لسان العرب لابـــن منظـــور) جـــ ٩ صـــ ٣٠٨ مادة (كنف)

(٢)(أسك) (أذن سكاء بينة السك، وهو قصرها وصغرها) أساس البلاغة للزمخشري جـــ ١ صـــ ٤٥١.

(٣)صحيح مسلم كتاب (الزهد رقم ٢ صـــ ٢٢٧٢ جـــ ٤.

وبذلك يكون قد خاطب في المخاطبين كل مواطن الحس، وحرك فيهم سواكن المشاعر، وأقرت بذلك عقولهم بعد أن وعته قلوبهم.

لقد طبع بدقة أسلوبه وتنويعه بين الوسائل المرئية، والمسموعة والمعقولة طبع في أنفسهم صورة المتكالبين على الدنيا بصورة لاهثين في مضمار للفوز بجيفة جدي أسك.

وهذا من تمام فطنة الرسول ﷺ إذ كان (يغتنم فرصة التصرفات العلمية التي تقتضي توجيها تربويا أو عمليا ؛ ليأخذ منه المسلمون درسًا إيجابيًا ؛ فكان يدعو إلى قيمة أو يصحح سلوكا، أو ينفى هذا السلوك الخاطئ وهي طريقة فعالة ترتبط بالوقائع المشاهدة وتتصل بما يعيشه الناس، ولذا ترسخ في الأذهان، وتثبت في القلوب، وبهذا ترتبط القيم بواقع الحياة، وهذا يعنى أن غرس القيم لا يقتصر على مجرد التعليم والحفظ والتسميع، وإنما يعتمد على واقع الحياة والخبرة المعيشية، وبالتالي يكون تأثيرها قويا، لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحس إن كانت هذه الظاهرة خارجية، وعن طريق التأمل إن كانت داخلية)[١]

فمن الأمر بغرض التعليم والتنبيه ما روى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ نَعْرِفُهُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِى عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ فَأَخبرني عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ». قَالَ صَدَقْتَ. قَالَ فَأخبرني عَنِ الإِحْسَانِ قَالَ « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ». قَالَ

(١)موسوعة (نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ﷺ-/ جـ: ١/ صـ ١٥١ ط دار الوسيلة ط ١ سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م) جده السعودية.

فأخبرني عَنِ السَّاعَةِ. قالَ « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأعْلَمَ مِــنَ الــسَّائِلِ ». قــالَ فأخبرني عَنْ أمَارَاتِهَا. قالَ « أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَهَا وَأنْ تَرَى الْحُفَــاةَ الْعُــرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في الْبُنْيَانِ ». قالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ ثَلاثًا ثُمَّ قالَ « يَا عُمَرُ هَلْ تَدْرِى مَنِ السَّائِلُ ». قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَــمُ. قــالَ « فَإِنَّــهُ جِبْرِيلُ أتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » رواه مسلم(١).

وتتمثل سيطرة الأسلوب في هذا الحوار الماتع بــين رســول الــسماء للأرض جبريل – عليه السلام – وبين رسول الأرض لأهل الأرض محمد ﷺ لتقرير وبيان أمور الدين، (والدين الذي جــاء جبريــل – عليــه الــسلام – لتوضيحه، هو الإسلام – إن نظرنا إلى السلوك الظاهر، والعمل البــين –.، وهو: الإيمان – إن نظرنا إلى اليقين الباعث، والعقيــدة الدافعــة – وهــو: الإحسان – إن نظرنا إلى كمال الأداء والوفاء على الغاية عند اقتران الإيمان الواضح بالعمل الصالح، – بل هو جملة هذه المعاني لا ينفصل أحدها عــن الآخر(٢)

وقد تميَّز الحوار بقوة الاتصال فتكرر الأمر (أخبرني) خمس مرات فــي سؤاله عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، والساعة، وأمارتها بغرض تعلــيم الصحابة – رضوان الله عليهم – ومن بعدهم أمور دينهم، وما يجب علــيهم أن يفقهوه، وما يجوز السؤال عنه، وما لا يجوز السؤال عنه لاختصاص الله بعلمه – كالسؤال عن الساعة وإنما أباح لهم أن يعرفوا أمارتهــا ؛ لتكــون نذيرا لهم حتى لا يستبعدوها بمرور الزمان، وهذه الأمور التي دار الحــوار حولها معانٍ طريفة لم يتحدث بها أحد إلا نبي الأمر الذي يزيد الأمر سيطرة عند المخاطبين ويحكم الشوق على المتابعة، والإنصات، والحفظ.

يزيد الأسلوب سيطرة بهذه الطريقة التعليمية المشوقة الراقيــة التــي تعلوها أخلاق الملائكة، ويحدوها صفاء الأنبياء، وتحضرها ثلة من الأولــين أن وسيلة التعليم فيها تعتمد على الحوار عن طريق السؤال، والجواب فــي

---

(١)صحيح مسلم جـ ١ صـ ٣٧ كتاب: (الإيمان ١).

(٢)الجانب العاطفي من الإسلام بحث في الخلق والسلوك والتصوف – الشيخ محمد الغزالي صـ ٢١ – ٢٢ ط دار الدعوة للطبع والنــشر ط ســنة ١٤١٠ هـــ ١٩٩٠ م

أدب عال من السائل، وتواضع جم من المسئول بغرض تعليم المستمعين أمور دينهم إذ قد تمنع السائل هيبة المسئول عن ما في نفسه، أو الحياء منه، أو خوف الخطأ، أو جهله بالأمر أصلًا فهذه الطريقة الحوارية المسيطرة بين جبريل عليه السلام، والرسول ﷺ تضمن الإفادة للجميع، وتقرر المفاهيم في أذهانهم عن طريق الحوار.

ولطالما كان للحوار أثر مسيطر في كلام البليغ الذكي خاصة، وقد اتخذ الحوار أشكالا متعددة في تراث الجاهليين وقد كانت المنافرات الشعرية شكلاً من أشكال الحوار الذي يستحوذ على عقول المخاطبين وقلوبهم، وكذا المنافسات الأدبية في مختلف عصور الأدب كانت تستهوي المخاطبين وتستحوذ قلوب العاشقين مسيطرة حال سماعها على حواسهم المتصرفة، وقواهم الفاعلة وهي تبقى بعد ذلك عالقة بأذهانهم على قدر براعة منشئها تأمل تلك المنافرة بين عبيد الأبرص وامرئ القيس فقد روى: أن عبيد بن الأبرص لقي امرأ القيس، فقال له عبيد:كيف معرفتك بالأوابد؟ فقال:ألق ما أحببت؛ فقال عبيد (البسيط):

ما حيَّةٌ ميْتةٌ أحيت بميتها ... درداء (١) ما أنبتت سنًا وأضراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الشعيرة تسقى في سنابلها ... فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد:

ما السود والبيض والأسماء واحدة ... لا يستطيع لهن الناس تِمْسَاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها ... روى بها من محول الأرض أيْبَاسا

فقال عبيد:

ما مرتجات (٢)على هول مراكبها ... يقطعن طول المدى سيراً وإمْراسا

(١) الدَّرَد ذهاب الأسنان دَرِدَ دَرَداً ورجل أدْرَدُ ليس في فمه سن بيّن الدَّرَد والأنثى دَرْداء (لسان العرب ج ــ ٣/ ص ١٦٦.

(٢) النوق الموثقة الخلق السريعة (لسان العرب ج ــ ٢/ ص ٢٧٩) والأمراس الحبال والعرب تشبه النجوم في السماء بأنها موثقة بالحبال ينظر ديوان عبيد الأبرص: ٦٦.

فقال امرؤ القيس:

تلك النجــوم إذا حانــت مطالعهــا شبهتها في ســواد الليــل أقباســا

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرضٍ لا أنــيس بهــا تأتي سراعاً وما يــرجعن أنكاســا

فقال امرؤ القيس:

تلك الريــاح إذا هبــت عواصــفها كفــى بأذيالهــا للتــرب كناســا

فقال عبيد:

ما الفاجعات جهــاراً فــي علانيــةٍ أشد مــن فيلــق مملــوءةٍ باســا

فقال امرؤ القيس:

تلك المنايا فما يبقــين مــن أحــدٍ يكفتن(١) حمقى وما يبقين أكياســا

فقال عبيد:

ما السابقات سراع الطير في مهــلٍ لا تستكين ولــو ألجمتهــا فاســا

فقال امرؤ القيس:

تلك الجياد عليها القوم قد ســبحوا كانوا لهن غــداة الــروع أحلاســا

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرض الجو في طلــقٍ قبل الصباح وما يسرين قرطاســا

فقال امرؤ القيس:

تلك الأماني يتــركن الفتــى مَلِكــاً دون السماء ولم تَرْفَعْ بــه راســا

فقال عبيد:

ما الحاكمون بلا ســمع ولا بــصرٍ ولا لسانٍ فــصيح يعجــب الناســا

فقال امرؤ القيس:

تلك المــوازين والــرحمن أنزلهــا رب البرية بين الناس مقياســا (٢)

---

(١) يكفتن أي يقبضن، أو يأخذن أخذاً شديداً ينظر لسان العرب ج ــ ٢/ ص ٧٨.

(٢) ديوان عبيد الأبرص ص/٦٥: ٦٦.

وتبدو سيطرة الأسلوب في مثل هذه المنافرات من عدة وجوه منها: طبيعة المنافسة التي تتابعها النفوس البشرية بشغف واستشراف، ومنها: رغبة المخاطب في الوقوف على صاحب الغلبة، وصاحب الكعب الأعلى في المنافرة، ومنها طرافة المفاجئة التي تنبعث من مفاجأة السؤال، وعبقرية الرد، ومنها: براعة الشاعر السائل في الجمع بين غرابة المعنى، ودقة النسج.، ومنها: عبقرية الشاعر الذي يتولى الجواب حيث إنه يتقيد بطريقة السائل، ويجيب بوزنها نفسه متلزماً بقافية السائل نفسها محققاً الجواب المطلوب في سرعة بديهة، وحسن صياغة يبزُّ بها السائل.

ومبادرة عبيد بن الأبرص لامرئ القيس بالسؤال فيها ذكاء منه وفطنة ؛ لأنه جعله في موقف المدافع المسئول الذي يتردد بين الإجابة، وبين العجز، وبذلك يضمن عبيد أحد أمرين: أولهما أن يعجز خصمه، وبذلك يحقق تفوقه، ويبين فضله عليه، والآخر أن يجيب، وبذلك يكون قد نجا هو من مفاجأته بما قد لا يجد له جواباً شافياً.

ثالثًا: التكرار.

من تصرفات البليغ التي تعطي الأسلوب سيطرة، وسحراً إذا ما أحسن استغلالها في مداعبة الوجدان، وإشعال الخاطر التكرار.

إن كان التكرار سبباً في الملال وصارفاً للنفس عن المتابعة في غالب الكلام إلا أنه لدى العبقري له وضع خاص وأثر خلاب يستجلب الاستحسان ويحقق الإذعان، ويملأ الوجدان. إضافة إلى ما يحققه من إلحاح على تأكيد الفكرة، وتعميق المضمون، وجعل المعنى ملأ الأسماع، والأبصار.

وليس أدلَّ على ذلك مما جاء في البيان المعجز مما يعجز الوصف عن الإحاطة بسحره تأمل سورة الرحمن وروعة التكرار الذي يزيد امتزاجاً بفيض الإشعاع البلاغي للآيات في كل مرة يكرر فيها قوله – تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قال العلامة الألوسي: عن بعض أسرار التكرار في السورة الكريمة (وهذا التكرار أحلى من السكر، ونقل عن (السيد المرتضي: التكرار في سورة الرحمن إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبَّخ على التكذيب بها كما يقول الرجل لغيره ألم

أحسن إليك بأن خولتك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا، وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به وهــو كثيــر فــي كــلام العــرب وأشعارهم) (١).

ومن بديع التكرار الذي بلغ مبلغه في التأثير، والسيطرة على وجــدان المخاطب ما جاء عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أبي بَكْرَةَ عَنْ أبيهِ رَضِي اللَّهم عَــنْهم قالَ قالَ النَّبيُّ ﷺ ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثلاثًا قالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّــهِ قــالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فقالَ ألا وَقَوْلُ الزُّورِ قــالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ](٢)

تضمَّن الحديث عدة عناصر تحقق سيطرة الأسلوب منها بداية الحديث بطرقة المستفتح (ألا) للتنبيه، وإثارة المخاطب ولتفيد تحقق ما بعدها.

ثم إنه صعَّد هذا التنبيه وزاد المخاطب تشويقاً بقوله (ألا أنبــئكم) لأن مادة الفعل (أنبئكم) وهي النبأ تعني الخبر العظيم فــالخبر إذا كــان محقــق الوقوع ذا فائدة جليلة يحصل به علم أو غلبة ظن يطلق عليه بهذه القيــود نبأ فحق الخبر الذي يقال له نبأ –أن يتعرى عن الكذب كخبــر الله تعــالى، وخبر نبيه ﷺ والتواتر، ولذا سمى الله القرآن وما فيه (نبأ) قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ *عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ (٣) (٤)

وقد زاد التشويق درجة بعد درجة بأفعل التفضيل (أكبر) التــي أعطــت الخبر المنتظر في خيال المخاطب حجماً لا يتلفت معه إلى شيء حتى يعــرف مضمونه.

ثم رفع درجة التشويق أكثر بإضافة أفعل التفضيل لكلمة (الكبائر) فبلغ بها قمة الإثارة، والتشويق، وملك بها على المخاطبين أفهامهم، وأسماعهم.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ المؤلف: محمود الألوسي أبو الفضل/ جـــ ٢٧/ ص ٩٧ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) صحيح البخاري/ كتاب الشهادات/ باب ما قيل في شهادة الزور/ حــديث رقــم ٢٦٥٤.

(٣) سورة النبأ: ١، ٢.

(٤) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية/ د.صباح عبيــد دراز ومفــردات الراغب/ صـــ٤٤١.

ثم التكرار ثلاثاً لجملة البداية (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) وإذا كان التكرار وسيلة بيانية، وأداة فنية لها جذور في فطرة النفوس البشرية لاسيما عند أصحاب اللسان العربي كما تقتضيها مقامات، ومواقف لا بديل منها فيها والمقام هنا مقام تحذير وترهيب والموقف يستدعي ذلك لأنه بصدد خطأ جلل وذنب عظيم، وتكرير العبارة يؤكد المعنى ويرفع درجة التشويق والإثارة التي تهز الوجدان وتملك على المخاطب أقطار نفسه ويصير درجة بعد درجة في قمة الترقب مما يربي المهابة ويضمن للخبر الثابت والفاعلية.

أضف إلى ذلك أن هذا الذي يكرر العبارة في قمة الوعي لمدلولها مع قمة الصدق فيها.

إذا ما توفرت كل هذه الأسباب لعبارة بنيت هذا البناء في هذا النسق من هذا القائل بهذا الصدق كان لها أثر يهز الوجدان هزاً عنيفاً يزلزل جدار الغفلة حتى يسفر عن شمس اليقظة يحدوه الترقب لمعرفة هذا المكرر الذي ارتقى درج الكبائر حتى استقر فوق قمتها.

وقول الصحابي: (وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا) جملة حالية تعكس الاهتمام والعناية وسبب الاهتمام بذلك وتأكيد الحرمة كون الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعاً على الناس والتهاون بها أكثر؛ لأن الحوامل عليه كثيرة: كالعداوة والحقد والحسد... وغير ذلك، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه والشرك مفسدته قاصرة، ومفسدة الزور متعدية.(١)

أما عن انعكاس هذا الفعل على المخاطبين فإن هذا الجلوس المفاجئ من الاتكاء يثير الدهشة ويربط المخاطب بالمتكلم بحاسة البصر بعد حاسة السمع مما يزيد الخبر المُلقى تمكناً في النفس وثباتاً مع الزمن.

لأن هيئته ﷺ بين يدي حديثه غاضباً جارهاً بالصوت محمر الوجه مشيراً بيديه في انتفاضة تنذر بالعذاب تنطبع في الذهن مع انطباع المعنى مما يحقق مع دوامها وثباتها – دوام وثبات تأثيرها كلما استدعاها موقف كما تلقَّاها لحظة الحديث، وهذا التأثير هو الذي مكن الصحابي من نقل الموقف بكل دقائقه.

(١) عمدة القارى/ جـ ٩/ صـ٥٠٦.

وهذه الخاصية لا تجدها إلا في طبقة المعاني الدقيقة والأساليب العالية كالقرآن والحديث النبوي وأساليب بعض البلغاء الذي يتميزون بحس مرهف مع إحساس صادق بالإضافة إلى ملكة الإبداع وسلامة الفطرة اللغوية.

وقولــه: (ألا وقول الزور) و(ألا) كلمة تنبيه وتحضيض لضبط ما يقال وفهمه على وجهه، والزور في الأصل الانحراف وفي الاستعمال هو تمويــه الباطل بما يوهم أنه حق؛ وإنما كرره بهذا الوجه؛ لأن الدواعي إليه كثيــرة وأسهل وقوعاً على الناس، والشرك ينبو عنه المسلم، وعقوق الوالدين ينبو عنه الطبع.(١)

وتكرار قولــه: (ألا وقول الزور) بعد اتكائه ثم جلوسه المفاجئ يعكس اهتمامه الشديد ببلوغ الخبر بحجمه الذي يشعر بــه للمخــاطبين وتعظيمــه لخطر هذا الفعل وغفلة الناس عنه لذا سبقها بعمل يقسر الانتبــاه، وبــأداة تساوق العمل في مغزاه.

وتجد أثر العبارة، وسيطرة الأسلوب، ومدى مــا وصــل إليــه معنــى الحديث في أغوار النفوس وما أحدث في وجدانهم تجــد ذلــك فــي تعبيــر الصحابي في قولــه: (فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) حيث عبر بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار مع استحضاره للــصورة فــي قولــــه (يكررها) وقبله بالفعل الذي يدل على الاستمرارية (ما زال) بدلالته.

ثم استخدامه لــ (حتى) التي تدل على أن الأمر بلغ غايته ثم استخدامه للفعل (قلنا) متصلاً بناء الفاعلين إشارة إلى عموم الإحساس بمدى الانفعــال الذي كان فيه الرسول ﷺ حتى أشفق الجميع عليه من شدة تــأثره. الأمــر الذي انطبع في وجدان المخاطبين وأحدث هذا التجاوب.

وقولــهم: (ليته سكت) التي جعلت من طول ما كرر سكوته أمنية فــي غاية البعد حتى استخدموا (ليت) التي تستخدم في تمني البعيد، والمــستحيل لشدة انفعاله وتأثره.

ويمكن أن نلخص ما أمكن من وسائل سيطرة الأسلوب في هذا الحديث العبقري في مجموعة من النقاط تضافرت في إحداث هذا الأثر منها:

---

(١) عمدة القارى/ جـ ١٥/ صـ١٤٩.

رفع درجة الإحساس بخطر الأمر عن طريق التكرار مع استخدام أفعل التفضيل مضافة إلى (الكبائر) ثم الانتفاضة المفاجئة من الاتكاء إلى الجلوس ثم بتكرار العبارة الأخيرة تكرار فاق الحد المعهود للتكرار في غير هذا الحديث.

ومنها: اجتماع كل وسائل الإيقاظ والتنبيه مع الوسائل البلاغية الأخرى التي تضمن للخبر الإنصات والتنبيه قبل إلقائه. والإنصات والترقب والفهم للخبر أثناء إلقائه ثم توفر له الثبات والدوام بعد إلقائه.

ومنها: الحركات التعبيرية التي صاحبت الحديث وهذا التكرار الذي لم يعتده الصحابة في أحاديث الرسول ﷺ يضمن للخبر الذيوع والانتشار حيث تتناقله الركبان وتتجاذبه أحاديث السمَّار لطرافته، وغرابته، وما حمل من وسائل التشويق. وهذه خصيصة أخرى تضاف إلى مميزات سيطرة الأسلوب النبوي.

والتكرار في الأساليب المسيطرة لا يكون إلا لخطب عظيم كقول الرسولﷺ فيما روي عن الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أبيهِ قالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قامَ فقالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ](١)

ومما سبق تتضح لنا جملة من الفوائد للتكرار في إطار سيطرة الأسلوب خصوصًا وفي الأساليب البيانية عمومًا منها:

١ قسر الانتباه وضمان الإنصات والترقب بالدرجة اللازمة لاستقبال الخبر

٢ تقرير المعنى وتأكيد.

٣ تحقيق الإفهام لمن تأخر فهمه عن طريق التوضيح الحسي

٤ تنشيط النفوس ودفع السأم.

٥ تحقيق التركيز على المعنى المراد من الحديث.

ومن بديع التكرار الذي يعد من وسائل الجذب والتنبيه التي تحقق سيطرة الأسلوب وتعمل عملها في توكيد المعنى ما جاء في قصيدة المهلل

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي/ ٤/ ٦٣٦/ حديث (٢٤٧٥) ت: أحمد محمد شاكر وآخرون: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

بن ربيعة يرثي كليباً ويعدد مآثره مركزاً خاصـية التكـرار فـي اسـتجلاب القلوب، والسيطرة على قوى النفس المتصرف لتتفاعل مع شعوره المتأجج بعظم المصاب بعد أن يخامرها الشعور نفسه الذي طغى على نفـسه تأمـل قوله (الوافر):

قَتِيـلٌ مَـا قَتِيـلُ المَـرْءِ عَمْـروٌ وَجَسَّاسُ بْـنُ مُـرَّةَ ذُو ضَـرير
كَـأنَّ التَّـابِعَ المِـسْكِينَ فِيْهَـا أَجِيـرٌ فِـي حُـدَابَاتِ الْـوَقِير
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا خَـافَ المُغَـارُ مِـنَ الْمُغِيـر
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا طُـرِدَ اليَتِـيمُ عَـنِ الْجَـزُور
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا مَـا ضَـيمَ جَـارُ المـستجير
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا ضَـاقتْ رحيبـاتُ الـصدور
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا خَافَ المَخُـوفُ مِـنَ الثُّغُـور
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا طَالَـتْ مُقَاسَـاةُ الأُمُـور
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا هَبَّـتْ رِيَـاحُ الزَّمْهَرِيـر
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا وَثَـبَ المُثَـارُ عَلَـى المُثِيـر
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا عَجَـزَ الغَنِـيُّ عَـنِ الْفَقِيـر
عَلَى أنْ لَـيْسَ عَـدْلاً مِـنْ كُلَيْـبٍ إذَا هَتَـفَ المُثُـوبُ بِالْعَـشِير
تَـسائلني أميمَـةُ عَـنْ أبيهـا وَمَا تَدْري أُمَيْمَـةُ عَـنْ ضَـمِير
فَـلاَ وَ أبـي أميمَـةَ مَـا أبوهـا مَـنَ الـنَّعَمِ المُؤَثَّـلِ وَالْجَـزُور
وَ لكنَـا طعنَـا القَـومَ طعنـاً علـى الأثبـاج مـنهمْ وَ النحـور
نَكُـبُّ الْقَـومَ لِلأذْقَـانِ صَـرْعَى وَنَأخُـذُ بِالتَّرَائِـبِ وَالـصُّدُور
فَلَوْلاَ الـرِّيْحُ أَسْـمِعُ مَـنْ بِحُجْـرٍ صليلَ البيض تقـرعُ بالـذكور (١)

وتبدو خاصية السيطرة للأسلوب في هذه الأبيات في موضـوعها مـن ناحية، ومن هذا التكرار من ناحية أخرى، أما من ناحيـة الموضـوع فهـو الرثاء، وهو عالق في الوجدان البشري الذي يتأثر سريعًا بالأسى، والشجن

(١) ديوان مهلهل بن ربيعة ص ٤٢.

ويتعاطف مع القلب الحزين، وهو ما جعل التكرار، وترجيع هذا المقطع (عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ) مقبولاً لاستجرار فضائل المرثي، واستثارة كوامن النفوس بتعداد فضائله، ومن ثمْ تعظيم جُرم من أقدموا على قتله.

ومن ناحية التكرار فإنه قرر المعاني المقصودة، وأكدها، ووضع المرثي بمآثره بين سمع السامعين، وبصرهم.

قوة الفكرة من عناصر سيطرة الأسلوب.

من عناصر سيطرة الأسلوب قوة الفكرة وحسن عرضها وتسلسلها بطريقة منطقية تفضي إلى الإقناع.

وقوة الفكرة ووضوحها تأتي من حسن تخطيطها، وحسن عرضها، وكمال وضوحها في ذهن مبدعها ؛الأمر الذي ينعكس على الأسلوب بلفظه، ومعناه، والذي ينعكس بدوره على المخاطب الذي يتأثر بها، وللفكرة مراحل تمر بها في تحقيق السيطرة على المخاطب، ومنها الطرافة.

لابد في الفكرة المعروضة أن تمثِّل إضافة للمخاطب الذي يشعر معها بالحاجة إلى المتابعة ليصل معها إلى نهايتها.

وطرافة الفكرة تأتي من الجدة والإبداع كما تأتي من حسن التصرف في بعض الأفكار التي سبق عرضها والتجديد في صياغتها، أو عرض فكرة قديمة غفل عنها الناس.

هذا من ناحية البداية حتى إذا سار في فكرته أحسن التخطيط لها وأحسن عرضها حتى لا يفقد الخيط الذي يربطه بالمتلقي فقد تكون الفكرة جيدة مبتكرة ولكن سوء العرض يفقدها قيمتها عند المتلقي الذي يتأثر بها.

والفكرة في الأدب ذات أهمية خاصة في السيطرة على عقل المخاطب، والفكرة بالنسبة للفنان الأساس الذي ينبني عليه العمل الفني، وبالنسبة للقارئ الاستخلاص النظري عما عبر عنه الفنان بالصور.

وقد حفل الحديث النبوي بالنماذج العلا – على المستوى البشري – في سمو الأفكار، وجلالها، وجمالها، وحسن عرضها لما تضمَّنه من معانٍ شملت كل المواقف التي يمرُّ بها البشر في الدنيا والآخرة فلم يخل حديث طال أو قصر من فكرة، أو أكثر ذات خطر في معاش الناس، أو في معادهم.

فمن جمال الفكرة وحسن عرضها وسيطرتها على الأفهام ما نجده في أعلى طبقاته في البيان النبوي مع ما فيه من التشويق والإثارة والتنبيه إلى فضل الخبر ما جاء في صحيح مسلم: [قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ] رواه مسلم(١).

وتتمثل خاصية سيطرة الأسلوب في هذا الحديث في هذا المسلك البديع الذي سلكه النبي ﷺ في الفكرة وحسن عرضها، والتشويق لها ذلك أنه افترض عقدة (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا) ثم افترض لحلها فرضًا (ولا تؤمنوا حتى تحابوا...) ثم طرح استفهامه التشويقي عرضًا للحل بعد أن تدرَّج بأفهامهم من نقطة إلى نقطة بأسلوب منطقي يصل به إلى الإجابة عن الاستفهام دون انتظار رد منهم لثقته بأنه ارتقي بهم درجات الترقب درجة درجة حتى وصل أعلاها.

والفكرة التي عرضها الرسول ﷺ عن طريق هذا الأسلوب التشويقي جاءت في تمام الوضوح وسارت بطريقة منطقية حتى استقرت في عقول المخاطبين بالصورة التي أرادها النبي ﷺ.

ومن جمال الأفكار ووضوح المعاني، وترابطها وعرضها ما جاء في قوله ﷺ: (أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ قَالَ فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ](٢).

وتتمثل خاصية السيطرة في هذا الحديث مع جمال الفكرة وحسن تسلسلها تتمثل في الحوار المنطقي مع التسلسل في عرض الفكرة وقيامها على التشويق مع تمام الوضوح في المعنى.

وهو من خدمة الفكرة وحسن التمهيد لها حتى لا تُلقى في فضاء الغفلة فتضيع قيمتها فقد تكون الفكرة جيدة والأسلوب في ثوب قشيب ولكنها لم تجد أذنًا مصغية ولا قلباً واعياً.

---

(١)صحيح مسلم/ جـ ١ ص ٥٣ الحديث (٢٠٣) كتاب (الإيمان) باب: (بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون...).

(٢) صحيح البخاري/ ج ٥/ ٢٣٦٦/ الحديث رقم (٦٠٧٧) ت/ محمد ديب البغا/ الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م، ط: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت.

تأمل كيف يتصرف العبقري في التمهيد للفكرة فيما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طريق مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ قَالُوا وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا] رواه مسلم(١)

وتبدو سيطرة الأسلوب النبوي في عبقرية الطرح الذي اعتمد الأسلوب التعليمي الراقي الذي يلقى على أسماعهم اللفظ الغريب غير المعلوم لديهم تشويقاً يلفت انتباههم ؛ فيستخرج به أسئلتهم ويجيب عنها، ولكن بعد أن يثير فضولهم ويجذب انتباههم ويضمن إصغاءهم حتى إذا ما ألقى الفكرة التي يقصدها ألقاها، وقد مهَّد لها تربة أفئدتهم ؛ فتنبت فيها، وتثمر.

وهذه الفكرة التي قررها الحديث هي سبق الذاكرين لغيرهم من المؤمنين حيث إن الذكر يجعل صاحبه في معية ربه أبداً، وعلى كل حال دون كلفة، ولذا ارتبط لفظ الذكر في القرآن بالكثرة التي تؤكد دوام الصلة بين الذاكر والمذكور.

وتلك إحدى طرق النبي ﷺ في عرض الفكرة، وتقريرها حيث إن كل أفكاره من الأهمية بحيث تستلزم قلوباً يقظة، وعقولاً منفتحة، ونفوساً مستشرفة.

ومن ذلك فيما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ اتَّقُوا اللَّاعِنَيْنِ قَالُوا وَمَا اللَّاعِنَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ] رواه مسلم(٢) وأبو داود(٣).

وتبدو عبقرية التمهيد للفكرة في الأسلوب المسيطر في استخدم لفظ من الألفاظ الموحية بطبيعتها في صيغة الأمر للجماعة (اتقوا) ودلالة الفعل،

(١) صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) حديث (٤) جـ ٤ صـ (٢٠٦٢).
(٢) صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٢٦. كتاب: (الطهارة) حديث (٦٨)
(٣) سنن أبي داود جـ ١ صـ ٧ حديث (٢٥) ت – محمد محي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت، بدون.

وهي التحذير توحي بالخطر، ثم اللفظ الغريب (اللاعنين) غير معلوم المقصد لديهم إضافة إلى أنه يوحي بالطرد والإبعاد التي تشي بـــه دلالـــة مـــصدره (اللعن) ويظهر أثر الأسلوب سريعاً فـــي هـــذه الاســـتفهامة العجلـــى مـــن المخاطبين: (وَمَا اللَّاعِنَان؟) ثم يقرر بعد هذا التمهيد فكرة حرمة إيذاء الناس في طرقاتهم الأمر الذي يؤدي إلى لعن الفاعل.

وإذا تركنا ساحة البيان النبوي إلى ساحة الـــشعراء وجـــدنا عبقريـــة الفكرة تختلف باختلاف قدرة كل شاعر ومهارته فـــي عرضـــها وصـــياغتها وحسن خدمتها. تأمل كيف رأى علقمة الفحل سحر الشباب، وما يعنيه عنـــد النساء وكيف صاغ الفكرة وعرضها ممهداً لها بتقرير كونـــه خبيـــراً بمـــا يتحدث فيه حتى يدفع المخاطب إلى الاقتناع بالفكرة، وقبولهـــا فـــي قولـــه (الطويل):

فـــإنْ تَـــسْألُوني بالنّـــساءِ فـــإنّني بـــصيرٌ بـــأدْوَاءِ النّـــساءِ طبيْـــبُ
إذا شابَ رأسُ المرء أو قـــلَّ مالـــه فليس لـــه مـــن ودّهُـــنّ نَـــصيْبُ
يُردْنَ ثـــراء المـــال حيـــثُ عَلِمْنَـــهُ وشرخُ الشّباب عندهنَّ عَجِيْبُ [1]

وانظر إلى عمر بن أبي ربيعة في فكرة الفراق كيف يصوغها لتأخذ من كل عقل مأخذًا يعود به إلى ذكرى حبيب فارقه بعد أن كان يرجو طول مكثـــه فصدمه بالرحيل (الكامل):

إنّ الخلـــيط أجـــدَّ، فـــاحتملا وأرادَ غيظـــكَ بالـــذي فعـــلا
قـــدْ كُنْـــتُ آمُـــلُ طـــولَ مكْـــثِهِمُ والـــنفسُ ممـــا تأمـــلُ الأمـــلا
فـــإذا البغـــالُ تـــشدُّ واقفـــةً وإذا الحـــداةُ قـــد اعتبـــوا الإبـــلا
فهُنَـــاكَ كـــاد الحُـــبُّ يَقْتُلُنـــي لَـــوْ كَـــانَ حُـــبٌّ قبْلَـــهُ قـــتَلا
إنَّ الَّـــذِينَ رَجَـــوْتُ مكْـــثَهُمُ قـــدْ أجْمَعُـــوا لِلْبَـــيْنِ مُحْـــتَمَلا [2]

(١) شرح ديوان علقمة الفحل للأعلم الشنتمري/ ص: ١٠.
(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢٢٦/ ت: بشير يموت/ الطبعة الأولـــى ســـنة ١٣٥٣ هـــ ١٩٣٤م/المطبعة الوطنية – بيروت.

فوضوح الفكرة من ناحية، وجمالها، وطرافتها من ناحية، وحسن صياغتها من ناحية ثالثة أمور تضمن سيطرة الأسلوب وتعلق بقلب المخاطب فيجد نفسه أسيرًا لهذا الأسلوب لا ينساه.

مراعاة الجوانب النفسية في بناء الأسلوب.

لما كانت دراستنا في عوامل سيطرة الأسلوب، والأسلوب يمثّل طريقة التعبير ويختلف باختلاف الأشخاص ؛ يعبر كل شخص به عن ذاته ؛ ويصور مشاعره، وأفكاره بقدر امتلاكه لأدوات اللغة.

وهو يعنى في الاصطلاح: البلاغي فن القول[١] ؛ وبذلك يأخذ بعدًا آخر غير تعبيره عن مشاعر صاحبه وخلجات نفسه وهو: التأثير في الملتقي.

ومن الجدير بالذكر في مقدمة هذا المبحث أن أشير إلى أن ارتباط البلاغة بالنفس ليس جديدًا، بل إنه نشأ بنشأتها، والتبس بكل جوانبها في مفهومها وفي قواعدها وأسرارها

نرى ذلك في تعريفات كثير من البلاغيين والأدباء في البلاغة ؛ فقد قال أبو هلال العسكري أنها (كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن)[٢].

ونلحظ هنا أن التعريف راعى نفسية المتكلم بصدور الكلام عن وجدان قد تمكَّن فيه وأشرب به، وأشار إلى تمكُّنه في نفسية المخاطب بتقريره في نفسه على الصورة التي في نفس المتكلم وراعى أيضاً الطبيعة الإنسانية التي تميل إلى الحسن في العرض، والتقديم.

كذلك راعى البلاغيون المحدثون الجانب النفسي، وارتبط بتعريفهم، وتفسيرهم للبلاغة، وقد بني على مراعاة أحوال النفس بحيث تشترك كل فنون البلاغة في ذلك فعرفوا الكلام البليغ بأنه (ما جاء مطابقا لمقتضى

(١) ينظر الأسلوب لأحمد الشايب صـ ٣٣، ٣٤
(٢) الصناعتين لأبى هلال العسكري صـ ٨ ط ١

الحال مع فصاحته وأبانوا عن الأحوال، ومقتضياتها، وصوغ الكـــلام، وفقًـــا لتلك المقتضيات بقولهم: (ومقتضى الحال مختلـــف فـــإن مقامـــات الكـــلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقـــام الإطـــلاق يبـــاين مقـــام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير.... وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذلك لكل كلمة مع صاحبتها مقام... وارتفـــاع شـــأن الكـــلام فـــي الحسن، والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته لهـــم، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب وهذا – أعنى تطبيـــق الكـــلام علـــى مقتضى الحال هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم حيث يقول:(الـــنظم تآخى معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التـــي يـــصاغ لهـــا الكلام)[١]. (وبنى منهجه في دراسة المعنى اللغوي على أســـس منهـــا أن: المعنى الدلالي يأتي نتيجة للتعليق بين معاني الألفاظ اللغوية وفقـــا لمعـــاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات... ومن بين تلك الأســـس ربـــط الكلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله)[٢]

وأما عن رعاية قواعد البلاغة، وأسرارها للجانب النفسي فنجـــد ذلـــك واضحًا في أكثر فنون البلاغة كإفادة التقديم، والتقوية والتأكيد مـــن ناحيـــة نفسية تتمثل في سكون النفس واطمئنانها، وتمكين المعاني منها لوصولها إليها بعد تشوق وإثارة[٣]

وكذلك الالتفات وما يحدثه للنفس من ترويح، ويدخل عليها من بهجـــة كما أشار كثير من البلاغيين[٤]

وأيضاً الإيجاز بنوعيه، وما له من أبعاد نفسية يرمـــي المـــتكلم إلـــى تحقيقها والمحافظة على نشاط النفس كما أشار أبـــو هـــلال العـــسكري أن

(١) ينظر بغية الإيضاح د عبد المتعال الصعيدي جـــ ١ صـــ ٢٦، ٢٧
(٢) ينظر عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوهـــا صـــــ د البدراوى زهران ط ٢ دار المعارف سنة ١٩٨١
(٣) ينظر دلائل الإعجاز صـــ ١٣١
(٤) انظر مفتاح العلوم للسكاكي صـــ ١٠٦، ١٠٧ البلاغة القرآنيـــة فـــي تفـــسير الزمخشري د. أبو موسي صـــ ٦٠١

(للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سببًا للملال، فذلك هو الهذر، والإسهاب، والخطل وهو معيب عند كل لبيب)[١]

وكذلك في كل فوائد الإيجاز تجدها مرتبطة بالنفس وفي التمني مثلا وارتباطه بالنفس يقول السيد الشريف الجرجاني في حاشيته على المطول (إذا قلنا: ليت زيدا قائم) فقد دللنا على نسبة القيام إلى زيد في النفس، وعلى هيئة نفسانية متعلقة بتلك النسبة على وجه يخرجها عن احتمال الصدق والكذب، فالمجموع المركب من هذه الألفاظ كلام لفظي إنشائي، والمجموع المركب من معانيها مدلول الكلام اللفظي الإنشائي)[٢]

كذلك القيمة النفسية للتشبيه والاستعارة والكناية، وما تقرره في النفوس من تأكيد للمعنى، وتوضيح، وتقريب، وكذلك لو تتبعنا كل فنون البلاغة، وأسرارها نجد أنها لا تنفك عن الهدف الذي يراعي جوانب النفس.

وعلى ذلك (لو حاولنا تفسير بلاغة القرآن الكريم، أو حديث الرسول الشريف أو فصيح كلام العرب لما استطعنا أن نتحسس الإثارة، أو الفائدة، أو الهداية، أو الإعجاز لمجرد أن هذه النصوص قد احتوت استعارة، أو كناية، أو تمثيل، أو تشبيه، أو أي لون من ألوان علوم البلاغة في المعاني، أو البديع، أو البيان، وإنما بالإضافة إلى ذلك لابد من مساس هذا النصوص واتصالها بنفوس قائليها وارتباطها بحاجات سامعيها، ومتلقيها، ولهذا فإن العنوان الذي يضم علوم البلاغة:(المعانى والبديع والبيان) يوضح لنا أن النصوص البلاغية لا تقف قيمتها عند احتواء الفنون البلاغية بل يضاف إلى ذلك ما يبتدئ في مناشط الحياة من حديث النفس، أو تقلب مجتمع، أو نشاط

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكري صـ ١٨٠، ١٨١
(٢) حاشية السيد الشريف على المطول صـ ٢٢٤

مادي أو خلاف ذلك مما يعرض للمجتمعات في رقيها، أو انحطاطها، وللأمم في سرورها، وشرورها)[١]

والخلاصة أن مراعاة أحوال النفوس من أهم عوامل سيطرة الأســلوب حيث يجري في النفس مع هواها ويعبِّر عن مكنونها، وهو ما يجعلها تقنــع بأنه منها، وأنها منه، وبالتالي لا تنفك عنه ولا ترغب في أن ينفــك عنهــا، وهو ما يجعل الأسلوب في قمة التأثير الذي يشكل تجاوب المتلقي مع المتكلم حسب مبتغاه.

ولذلك نجد الأسلوب المسيطر صورة من نفــس صــاحبه، وانعكــاس لصورة المتلقين التي جسَّدها المبــدع (والخلاصــة أن الــشيات النفــسية والروحية التي تمتاز بها الأمة مفرغة في أحوالها اللغوية، وهــذه الأحــوال منتزعة من تلك الشيات وكأنها صيغت منها، وهذا مما لا يخالف فيــه أهــل البيان[٢]

ومما يجدر الإشارة إليه أيضاً في ســيطرة الأســلوب الــذي يراعــي الجوانب النفسية ويبدو فيه ارتباط البلاغة بالنفس، كما يبــدو خلالــه أثــر البيئة، والطبع في بلاغة المتكلم وإنتاجه الأدبي كما قررالقاضي الجرجــاني "أن اختلاف أحوال الشعر من رقة وصلابة وسهولة ووعــورة ترجــع إلــى اختلاف الطباع فإن سلامة الطباع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقــة، وأنــت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك،وترى الجلف منهم كز الألفاظ،

(١) (دراسات في البلاغة) د. محمد بركات حمدي أبو على صـــ ٥٧ ط دار الفكر للنشر والتوزيع عمان – ط ١٤٠٣ هـــ ١٩٨٤ م بتصرف بسيط.
(٢) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د. محمد أبو موسي صـــــ ٤ ط ١ سنة ١٤٠٥ هـــ سنة ١٩٨٤ م مكتبة وهبة.

معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى انك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته، في جرسه ولهجته "[١]

وعلى هذا النهج يوضح القاضي الجرجاني العناصر اللازمة للنتاج الشعرى من: طبع ورويه وذكاء ودربه، ثم يفيض في توضيح اختلاف الطباع وما يترتب على ذلك الاختلاف من أثر في الشعر –فسلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع– ومن شان البداوة أن تحدث شعرا باديا جافيا "[٢]

وأيضاً من الأمور التي تبين مدي ارتباط البلاغة بالنفس موضوع التذوق الأدبي في التراث البلاغي، ولقد بلغت طريقة التذوق الأدبي والتأمل الباطني والاهتمام بالنفس ومراعاة أحوالها المختلفة القمة عند: عبد القاهر فالفكرة الرئيسية التي تبرز في كتابه (أسرار البلاغة) والتي يصح أن نعدها نظرية في الأدب هي: أن مقياس الجودة الأدبية تأثير الصورة البيانية في نفس متذوقها والفكرة في ذاتها فكرة إنسانية قديمة ؛ فقد تنبه الناس منذ العصور إلى أن الأدب نوع من الإبانة، وآلة التواصل الفكري وأن نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم

وهذا ما قام به عبد القاهر في فكرة التأثير الأدبي ؛.... أن المنهج النفسي في تفهم بلاغة النص الأدبي وتذوق أسراره متميز تميزًا تامًا في دراسة (عبد القاهر) حتى أن نظريات علماء النفس تجيء مؤيدة منهجه، ومؤكدة مسلكه.

وإذا كان عبد القاهر لم يذكر شيئاً ذا قيمة عن العوامل التي تتعلق بالنفس وتؤثر فيها كالبيئة وتأثيرها على الذوق وغير ذلك مما عرض له من سبقه بتوسع كالقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري فلعل السر في ذلك أن تلك الدراسات أو كثيرًا منها تناولها الجاحظ والآمدي والقاضي الجرجاني وغيرهم بالقدر الذي تحتمله طبيعة النقد والأدب، وذلك في

---

(١) ينظر الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني صـ ٢٤: ٢٥ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البيجاوى ط المكتبة العصرية بيروت لبنان بدون

(٢)انظر بحوث ومقالات في البلاغة د. فتحي عبد القادر فريد صـ ١٢٠ ط ١ مكتبة النهضة سنة ١٤٠٤ هـ سنة ١٩٨٤ م

دراستهم للشعر وللشعراء، واختلاف بيئاتهم وعصورهم وأحوالهم مما يجعل تناولها مرة أخرى نافلة لا مبرر لها ولا فضل ورائها[١].

وهكذا نرى أن كتب البلاغة قديمها ومتأخرها قد راعت أحوال الــنفس في توضيحها لأسرار النصوص والتراكيب التي حفلت بها)[٢] وهذا ما نــود الوصول إليه وهو التأكيد على ضرورة مراعاة الجوانب النفــسية لتحقيــق سيطرة الأسلوب وإلقاء الضوء على الشيات النفسية التي خالطت التراكيــب وحددت شكلها، وقد دعا إلى ذلك كثير من الأدباء والبلاغيين فــي العــصر الحديث:

ومن هؤلاء: أمين الخولي [٣] وأحمد حسن الزيات [٤] محمد خلف الله احمد [٥] وحامد عبد القادر [٦]، وعز الدين إسماعيل [٧] .

فقد رأي الشيخ أمين الخولي أن الاستعانة في دراسة البلاغة بعلــوم النفس يمكنها من تحقيق أهدافها ومن مظاهر تلك الاستعانة الكــشف عــن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفني ويعرف مثل ذلك عن الخيال والذاكرة والإحساس وعن الذوق كما يعرف الكثيــر عــن أمهات الخوالج الإنسانية من حب وبغض وحزن وفرح، وغيرة وانتقام، وما إلى ذلك مما هو مادة المعاني الأدبية الكبرى في الآداب الإنسانية كلها.

---

(١) نظرية العلاقات د. محمد نايل صـــ ١٠١ دار الطباعة المحمدية نقلا عن كتاب (بحوث ومقالات في البلاغة) د.. فتحي عبد القادر فريد صـــ ١٢٢

(٢) ينظر بحوث ومقالات في البلاغة د. فتحي عبد القادر فريد صـــ ١٢١: ١٢٥

(٣) أمين الخولي في كتابه (تجديد في النحو والبلاغــة والتفــسير والأدب) صـــــ ١٩٩: ٢٠٣

(٤) احمد حسن الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة) صـــ ٣٩:٤٠ مطبعة الرسالة

(٥) محمد خلف الله احمد في كتابه (من الوجهة النفسية في دراســة الأدب ونقــده) المقدمة

(٦) حامد عبد القادر (دراسات في علم النفس الأدبي) صـــــ ١٤: ١٦ المطبعــة النموذجية

(٧) التفسير النفسي للأدب د. عز الدين إسماعيل صـــ ١٤: ١٦ ط دار المعارف

ويرى الشيخ أمين الخولي كذلك أن الأخذ بالمنهج النفسي في دراسة البلاغة من أفضل السبل لتحقيق الهدف الديني من دراستها وهو تذوق أسرار القرآن البلاغية وفهما،التي تعد الوجه الأساسي لإعجازه...

يقول (... أن هذا القرآن من حيث هو فن أدبي معجز، ثم من حيث هو هدي، وبيان لن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ورياضتها.... فالنظر الصائب إليه، والفهم الصحيح له لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسيه روحية، وأدار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومثيرا ومهددا، فبالأمور النفسية لا غير يعلل إيجازه وإطنابه وتوكيده وإشارته، وإجماله وتفصيله، وتكراره من إطالته، وتقسيمه، وتفصيله، وترتيبه ومناسبته، وما قام من تعليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط،و ما جاوز ذلك فهو الإعياء والتحمل أو هو أشبه شيء به)[١]

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للقران الكريم فهو أيضاً كذلك بالنسبة للحديث النبوي إذ هو الشارح له والمبين لمجمله وهو بسبيله، وفي البيان النبوي أكمل نموذج بشري في رعاية الجوانب النفسية في صياغة التراكيب وتوجيه دلالاتها، ودقة عرض المعاني على وجه ينساب معه الأسلوب في مسارب النفوس ؛تأمل ما ورد في الحديث الذي رواه أبُو أيُّوبَ أنَّ أعْرَابيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَأخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أوْ بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أوْ يَا مُحَمَّدُ أخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ قَالَ فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ لَقَدْ وُفِّقَ أوْ لَقَدْ هُدِيَ قَالَ كَيْفَ قُلْتَ قَالَ فَأعَادَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ دَعِ النَّاقَةَ]رواه مسلم[٢].

وأمر الرسول ﷺ (تعبد، وتقيم وتؤتي وتصل) جاء في صورة الخبر وذلك ليوافق أسلوبه قول الأعرابي (أخبرني) فجاء أمره في صورة الخبر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رعاية لطبع الأعرابي الذي يأنف أن

(١) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب صـ ١٩٩ وما بعدها أمين الخولي وانظر (بحوث ومقالات في الأدب فتحي عبد القادر فريد صـ ١١٢

(٢) صحيح مسلم جـ ١ صـ ٤٣ كتاب (الإيمان) حديث (١٣).

يأمر،وهو الذي يحيا في صحرائه بلا قيود، أو أوامر، أو قــوانين فأســلوب النبي ﷺ بذلك راعي طبيعة نفس الأعرابي وشاكل كلامه.

وذكر الإمام الطيبي فائدتين أخريين قال (والعدول عن الإنــشائي فــي قوله "تعبد الله" لفائدتين:

أحدهما: أن المأمور كأنه سارع إلى الامتثال، وهو يخبر عنه إظهــارًا للحرص بوقوعه. ثانيهما: أن لا ينسب إلى عدم الامتثــال لأمــره إن قــصر المأمور، أو لئلا يكون المأمور مسخوطًا عليه إن لم يمتثل[1] واتبع النهي في قوله (لا تشرك) للأمر في قوله (تعبد) تأكيدا له لإخلاص العبوديــة لله مــن الشرك العالق في نفوس القوم من آثار الجاهلية[2].

وقوله في نهاية الحديث بعد هذه الأوامر (دع الناقة) إشارة إلى أنــه حصل على كل ما يريد وهو تنويه من طرفي أخفى إلى عظم ما أمر به هــذا الأعرابي.

وأسلوب النبي ﷺ من بدايته بعد أن أوقف الناقة ثم دار ببــصره فــي أصحابه، ونظرته إليهم فيها تنبيه بليغ يقطعهم عن شواغلهم ويصرفهم إليه ليسمعوا الجواب، ثم عبارته الشريفة (لقد وفق أو لقد هدى) للتنويه بعمــل الأعرابي، وللإثارة والتشويق لما بعدها، ثم استفهامه الشريف (كيف قلت؟) – وهو يعي ما قال بدليل قوله لقد هدى – بقصد التنبيــه للخبــر وإعادتــه ليسمع من لم يسمع ولتنبيه من غفل.

والحديث الشريف بجملته نموذج يقتدي به في التعليم التربية ومخاطبة الناس بأساليبهم، ورعاية الجانب النفسي عندهم. مع الحرص على عمــوم المنفعة وبلوغ الموعظة.

(١) التبيان في علم المعانى والبديع والبيان للطيبي صـــ ٥٣٦
(٢) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي جـــ ١ صـــ ١٦٣

المبحث الرابع:

من عوامل سيطرة الأسلوب (ألوان من البديع)

ألوان من البديع:

البديع من أكثر ألوان البلاغة تأثيرًا، وجذباً لاتصال كثير من ألوانه بالناحية السمعية مع ما فيه من الخلابة والطرافة التي تداعب العقل، والقلب بالمعنى في طريق وصوله إليهما.

ولذلك نجد أن البديع صار مضمار سباق يتبارى فيه المبدعون من الشعراء، والخطباء وكل أصحاب فنون القول بين مقلٍ منهم، ومستكثر، وبين محسن، ومسيء.

وأجمل البديع الذي يمكن أن تطالعه في أسلوب بشري هو ما تجده طي الحديث النبوي.

رغم أنه ﷺ (لم يكن فنانًا يقصد السحر بالفن، ويستجلب الإبداع بالأناة، ويستر القول بالصنعة بل كان الفن يسحر منه، ويروق فطرة مصطفاة، والإبداع يظهر في حديثه فيبهر طبعًا مجتبىً، والصنعة تدق على الناظر، وتجل بسر غير مكتسب، وكل ذلك صورة قلبه النابض، في كل نبضة منه قذفة نور تضيء، وقذفة نار تحرق، ولولا هذا التدفق بالنور، والنار ما بقيت رسالته وعمت – رعاها الله ومدها مد عرشه– [١].

ومن جميل البديع الآثر في البديع النبوي والذي يتناغم في نفسه ليحقق سيطرة الأسلوب عن طريق الخاصية الصوتية الحبيبة للنفس المستلذة في السمع ما روى ابن ماجة عن [أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ عَوْفٍ عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالَ .....قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ]رواه ابن ماجة[٢]

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د. عز الدين على السيد صـ ٢٥٤ بتصرف بسيط

(٢) سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٠٨٣) حديث (٣٢٥١).

وتبدو سيطرة الأسلوب في هذا السجع الجميل، والذي شمل جميع جمل الحديث فأوجد موسيقى رقيقة تداعب السمع، وتيسر الحفظ إضافة إلى الجناس في قوله (أطعموا الطعام) وبين (صِلُوا)و(صَلُّوا) والإرصاد الذي ربط أول الحديث بآخره في لفظ (السلام) أول الحديث) ولفظ (سلام) في نهايته.

ومنه قول رسول اللّه ﷺ: " كَلِمَتَان خَفِيفتان على اللِّسان، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ " وهذا الحديث آخر شيء في صحيح البخاري. (١)

يبدو سحر الأسلوب في هذا التوشيع: بذكر المثنى (كلمتان) ثم تفسيره بما بعده. ولا يخفى ما فيه من التشويق للمعنى حيث تستشرف النفس لمعرفة هذا المثنى وهذه صورة من صور الإيضاح بعد الإبهام.

مع براعة الاستهلال بالبداية بما يحقق التشويق ويحمل النفوس على المتابعة بحيث لا يتفلت المتلقون حتى يتقرر المعنى في أذهانهم فهذه البداية تربطهم بالمتكلم حتى يختم حديثه، إضافة إلى السجع في نهاية كل جملة من الجمل، والجناس الطبعي الذي استدعاه المعنى، والطباق الذي يؤكد المعنى بين خفيفتان، وثقيلتان والذي يظهر المفارقة الطريفة التي تشجع على العمل بين خفة الفعل، وعظم الأجر المترتب عليه.

ومنه ما جاء عن أبي مالك الأشعري رضي اللّه عنه قال:قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: " الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وَسُبْحانَ اللَّه والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآن، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. (٢)

فالدلالة الإيحائية لكلمة الطهور تبث في النفس معنى الإشراق، والصفاء، والطهر، والنقاء، ومعاني أخرى تستشعرها النفس بقدر قربها من أصل الفطرة النقية، وهذا في حد ذاته من براعة الاستهلال لميل النفوس إلى أصل فطرتها، وحرصها على تحصيل هذا الفضل.

(١) صحيح البخاري/ ١٦/ ١٩٩/ الحديث رقم (٦٤٠٦)
(٢) صحيح مسلم/ ج ١/ ١٤٠/ الحديث رقم (٥٥٦).

ثم إن هذا التجانس الذي يلوح على استحياء في حرفي الراء والطاء المكرر في المبتدأ وخبره يرسل في رقة نغمة رقيقة لا تكاد تدرك النفس مصدرها مع شعورها بأثرها.

وهي تترافق وتتداخل في التنغيم مع ذلك السجع البديع بين الجملتين المختتمتين بالألف والنون (الإيمان، والميزان).أضف إلى ذلك التوازن العجيب بين الجملتين.

ومن جميل البديع عند الشعراء قول علقمة (البسيط):

للماءِ والنَّار في قلبي وفي كَبدي من قِسمة الشَّوق ساعورٌ وناعورُ (١)

وتبدو سيطرة الأسلوب في هذا الطباق بين الماء، والنار، والتناسب بين القلب، والكبد مع حسن التقسيم في البيت، واللف والنشر بين الماء، والنار، والساعور، والناعور على اعتبار أن الناعور وسيلة الدفق، أو عينه في الدم للجرح وفي الماء للعين، والجناس أيضاً بين للفظتين الأخيرتين (ساعور وناعور) إضافة إلى الإرصاد الذي ربط أول البيت بآخره ثم إن هذه الألوان على كثرتها لا تشعر بموقعها حيث استجلبها المعنى وصقلها الطبع.

وتأمل قول ابن الرومي (الكامل):

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم انثنت عنه فظل يهيم

فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم (٢)

وتتمثل عناصر السيطرة في هذين البيتين في الموضوع الذي تميل إليه الفطر، وهو الغزل ثم براعة الشاعر في توظيف المقابلة التي صورت المفارقة الصعبة التي يقع فيها في حال القرب، وفي حال البعد فلا ارتاح في القرب ولا ارتاح في البعد، ثم في هذا التصوير الرائع بالاستعارة التمثيلية حيث استعارة حالة نزع السهم بعد وقوعه في الجسم لحالته إذا نظرت إليه المحبوبة ثم ابتعدت عنه بجامع الألم المتتابع حتى مع تبدل الحال في كل.

(١) شرح ديوان علقمة الفحل للأعلم الشنتمري/ ص: ٨٦/ ت: د: حنا نصر الحتي/الطبعة الأولى سنة: ١٤١٤هـ ٩٩٣ م.

(٢) ديوان ابن الرومي/ شرح: أحمد حسن بسج/ جـ ٣/ ٣٥٢/ طبعة دار الكتب العلمية.

ومن جميل سيطرة الأساليب ما يرد في حسن التعليل من التماس علــة طريفة مفترضة خلاف ما يعتقده الناس وهو مبني على المخاتلة، والطرافة، ومفاجأة المخاطب بغير ما يتوقع كقول أبي تمام (الطويل):

رُبىً شَفَعَتْ ريحُ الــصَّبَا لِرياضــها إلَى المُزْن حَتَّى جَادَها وَهُوَ هَــامِعُ

كَأنَّ السَّحَابَ الْغُــرَّ غَيَّــبْنَ تحْتَهَــا حَبيباً فَمَا تَرْقا لَهُــنَّ مَــدَامِعُ (١)

وتتمثل سيطرة الأسلوب في البيتين مع الصور البيانية لشفاعة الــريح وجود المزن وتغييب السحاب للحبيب في هذه العلة التي رآها لهطول المطر فقد بنى أبو تمام التعليل على توجيه الشك الاحتمالي، بأن بكــاء الــسحاب يحتمل أن يكون على ما دفنت من حبيب تحتها.

ومن وسائل الجذب والسيطرة الاستطراد وهو فن من البديع. ومنه قول حسان في الاستطراد بالهجاء بالحارث أخي أبي جهــل وهــو مــن (البحــر الكامل):

إن كنــت كاذبــة الــذي حــدثتني فنجوت منجى الحارث بــن هــشام

تــرك الأحبــة أن يقاتــل دونهــم ونجا بــرأس طمــرة ولجــام (٢)

وتبدو سيطرة الأسلوب في الطرافة والخلابة التي يبعثهــا الاســتطراد الذي يخرج من موضوع إلى موضوع جديد ينشط ذهــن الــسامع، ويزيــده تعلّقًا، وكلفًا بمتابعة المتكلم إضافة إلى طبيعة المعاني التي صاغها الــشاعر ببراعة مع طبيعة موضوع الهجاء الذي يكشف جانبًا غامــضًا مــن حيــاة المهجو، والنفس بطبيعتها كلفة بمعرفة ما غاب عنها.

وتأمل قول تأبط شراً (البسيط):

يا عيدُ مالَكَ مــنْ شــوق وإيــراق ومَرِّ طيفٍ علــى الأهــوال طــرّاق

يَسري على الأيْنِ والحَيّات محتفيــاً نفسي فداؤكَ مِنْ سارٍ على ساق(٣)

(١) شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي/ جـ ٢/ ص: ٤٤٩/ ت: راجي الأسمر/ طبعة دار الكتاب العربي.

(٢) ديوان حسان بن ثابت/ ص ٣١٤ ت عبدان مهنا/ الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م/ دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) ديوان تأبط شراً/ ص: ٤١/ ت عبد الرحمن المصطاوي/الطبعة الأولى – ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ م – دار المعرفة – بيروت.

تمثلت السيطرة الأسلوبية في براعة الشاعر في استخدام أدوات مختلفة، وأصوات متعددة، خارجية وداخلية، ابتداءً من النداء المفرد المعرفة في (يا عيد)، والاستفهام المراد به التعجب (مالكَ)، وانتهاءً في تفسير الصورة.

ومنحَ الشاعر الطيفَ تجسيماً حتى جرى على ضرب من الحيّات حافياً كان ابتداءً، وكأنه في التفصيلات الأخر سائر على قدَم، مع استخدام صيغة المبالغة في (طرّاق) وتكرار الحروف مثل: القاف، والراء والسين في البيتين لتتجانس الموسيقى الداخلية، لتكوِّن صورة سمعية ندركها بأسماعنا. (١)

تأمل قول عبيد الأبرص (البسيط):

هل نحن إلا كأجساد تمر بها تحت التراب وأرواح كأرواح (٢)

فالأرواح الأولى جمع روح، والثانية جمع ريح، فهذا الجناس بما يحدثه من تماثل لفظي، وصوتي يخدع عن المعنى، وقد أعطى الزيادة، ويحمل على توهم التكرار، مع إفادته التجديد، والابتكار. وذلك قمة الأداء البلاغي، والتأثيري في البيت.

ومن المعلوم لدى صاحب كل ملكة أصيلة وذوق عال في فنون القول أن ألوان البديع ذات التأثير والروعة تأتي طبعية مستدعاة من المعنى في حسن عرض منثورة في الكلام في مساحة المعنى متسقة مع الألفاظ كما أن درجة تأثيرها تتوقف على مهارة صاحبها في هذا التوظيف.

(١) الصّورة السّمعيّة في الشعر العربي قبل الإسلام د. صاحب خليل إبراهيم/١/٤٢ من منشورات اتحاد الكتّاب العرب/٢٠٠٠.

(٢) ديوان عبيد الأبرص/ ص ٤٤.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وأخرا على ما وفق وهدى، والصلاة والسلام على نبيــه المصطفي، وعلى آله، وصحبه، ومن اقتدى، وبعد.

فقد دارت الدراسة حول الأسلوب المتميز في الأســاليب العاليــة فــي محاولة لرصد ما أمكن من أسباب التميز، وعناصر سيطرة الأســلوب فــي البيان النبوي، وفي شعر نوابغ الشعراء، ومما سبق يتضح لنا أن الأسلوب المتميز الذي يحقق غرض المتكلم بــالتبليغ، وغــرض المخاطــب بــالفهم، واللذة، والأريحية، ويشعره بسرور حال سماعه، ويظل في وجدانه له صفات وخصائص لابد أن تتوفر فيه كلها، أو أكثرها ومنها:

١. الطبع.
٢. قوة العاطفة.
٣. الكلمات الموحية، وسلاسة الألفاظ وخلوها من عيوب الكلمة.
٤. التناسق البياني.
٥. عبقرية الصورة.
٦. اشتماله على ألوان من البديع دون تكلف.
٧. التناسق البديعي.
٨. حسن الابتداء وحسن الانتهاء.
٩. حيوية الأفكار ودقتها.
١٠. رعاية مقتضى الحال والمقام.
١١. روعة التراكيب.
١٢. اشتماله على عناصر لها فضل تــأثير علــى المخاطــب كأســاليب التشويق والتنبيه والتأكيد والصور الطريفــة، والكلمــات الموحيــة بطبيعتها.
١٣. المحافظة على طبقة الأسلوب العالي بحسن التصرُّف فــي المعــاني والألفاظ وتجديد الأساليب التعبيرية التي تدفع السأم وتحــافظ علــى اتصال المبدع بالمتلقي وتزيد من استشرافه.

١٤. تضمين الأسلوب ما يضمن له الذيوع، والانتشار إما بجمال في اللفظ أو جلال وطرافة في المعنى،أو برونق في البناء حتى يحقق الأسلوب فوائده ويؤتي ثماره.

فوائد الأسلوب المسيطر

من الواضح البيِّن في كل أسلوب من الأساليب مهما كانت درجته من البيان، والفصاحة أن كل متكلم عاقل يحرص على نقل رسالته إلى المخاطب في وضوح وتمام.

لأن أهم فوائد الكلام تحقيق الاتصال وهو مبني على التبادل بين المتكلم والمخاطب

يزيد عليه الأديب سعيه إلي الإبداع لتحقيق الإمتاع النفسي.

والأسلوب المسيطر يحقق الاتصال المطلوب على أتم وجه ويحقق الإفهام في أوضح صورة.

كما أنه يحقق الإمتاع النفسي الذي يسعى إليه المبدع والفنان العبقري لأن سيطرة الأسلوب مرحلة تتحقق بعد أن يملك المتكلم ببراعة أساليبه حواس المخاطب فيؤثر فيه لاتخاذ الموقف الذي يراه بعد أن يتقرر معناه في نفسه على أفضل وجه. ومن الفوائد التي يحققها الأسلوب المسيطر:

١. قطع المخاطب عن شواغله، وتوجيهه إلى المتكلم.
٢. الاستحواذ على عقل المخاطب، وقلبه في أثناء الحديث.
٣. ضمان استمرارية استشراف المخاطب حتى يتم تقرير المعنى المراد.
٤. تحقيق الثبات للمعنى في ذهن المخاطب بعد تقريره.
٥. تحقيق الذيوع، والانتشار للمعنى لما يدرك المخاطب من أريحية، وطرب من هذا الأسلوب يدفعه إلى التغني به، وترديده.
٦. تحقيق المتعة الفنية لكل من المبدع الذي أنشأه، والمتلقي الذي سمعه.
٧. هذا النوع من الأساليب من أفضل ما يربِّي الذوق، والملكة البيانية، ويعين على حسن العرض، ويثقِّف اللسان إضافة إلى أنه يفيد ما يفيده غيره من تقرير المعاني، وتأكيدها، وتثبيتها.

ولذلك نجد كثيرًا من أهل الذوق، والبيان عني عناية خاصـــة بما يسمى بالمختارات في كل فنون القول فمن المختارات الـــشعرية إلى المختـــارات النثريـــة، وقـــد رأينـــا المعلقـــات، والمجمهـــرات والمفضليات، والأصمعيات، والـــشوقيات ومختـــارات مـــن النثـــر والخطب من مختلف العصور مما يدل علـــى إدراك أهـــل الـــذوق، والبيان لقيمة بعض الأساليب، وخطرها، وفضل بعضها على بعض.

فمن الجيد المفيد أن يربَّى الذوق البياني على هـــذا الأســـلوب العالي، وأن يوجَّه إلى اقتفاء هذا الأثر في التعبير حتى نجـــد جيلًـــا جديدًا مميزاً يدرك قيمة التعبير، ويحسن العـــرض، ويكـــشف عـــن عبقرية تلك اللغة في عصر زاحمت فيـــه اللغـــات الأجنبيـــة لغتنـــا الجميلة.

فهرس المراجع

- الأساليب الإنشائية في النحو العربي/ د. عبد السلام هارون/ ط دار الجيل – بيروت –لبنان.
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ت: محمود محمد شاكر/ الناشر:مطبعة المدني/ الطبعة الأولى/١٤١٢هـ ١٩٩١م.
- أسلوب السخرية في القرآن الكريم د. عبد الحليم حفني/ ط: ١/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨.
- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د. محمد أبو موسي/ ط: ١/ سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م مكتبة وهبة
- إعجاز القرآن للباقلاني (أبي بكر محمد بن الطيب ٤٠٣ هـ) ت ـ أحمد صقر/ ط: ٣ ط دار المعارف.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ ت: سمير جابر/ الطبعة الثانية/ الناشر: دار الفكر – بيروت.
- الإيضاح للخطيب القزويني/ ت:محمد عبد المنعم خفاجي/ الطبعة الثالثة/ دار الجيل – بيروت.
- بحوث ومقالات في البلاغة د.. فتحي عبد القادر فريد/ ط: ١ مكتبة النهضة سنة ١٤٠٤ هـ سنة ١٩٨٤ م.
- بناء الجملة في الحديث الشريف في الصحيحين د. عودة خليل أبو عودة صـ ٦٦١ ط دار البشير ط ٢ سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ إحسان عباس/ الطبعة الرابعة ١٤٠٤ه – ١٩٨٣م/ الناشر: دار الثقافة/ بيروت – لبنان.
- تحفة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للمباركفورى/ ط دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ.
- تفسير أبي مسعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي (ت ٩٥١ هـ) الطبعة الرابعة سنة ١٤١٤ هـ سنة ١٩٩٤ م ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- التفسير النفسي للأدب د. عز الدين إسماعيل/ ط دار المعارف

- الجامع الصحيح سنن الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون/ الناشر: دار إحيـــاء التراث العربي – بيروت.
- الجانب العاطفي من الإسلام بحث في الخلق والسلوك والتـــصوف – الشيخ محمد الغزالي/ ط دار الدعوة للطبع والنشر ط سنة ١٤١٠ هـــ ١٩٩٠ م
- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية، والإسلام/ المؤلـــف: أبـــو زيـــد القرشي – ت محمد على البيجاوي – طبعة نهضة مصر – سنة ١٩٨١.
- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د عز الدين علـــى الـــسيد/ ط المؤلف سنة ١٣٩٣ هـــ سنة ١٩٧٣ م.
- الحيوان للجاحظ (أبي عمر بن بحر الجاحظ) ت عبد السلام محمـــد هارون/ط ٣ ط دار أحياء التراث العربي سنة ١٣٨٨ هـــــ ســـنة ١٩٦٩ م.
- خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) د – محمد أبو موسي ط ٤ سنة ١٤١٦ هـــ سنة ١٩٩٦ م مكتبة وهبه.
- الخصائص لابن جني (أبي الفتح عثمان بن جني) ت محمـــد علـــى النجار ط المكتبة العلمية.
- دراسات في البلاغة د. محمد بركات حمدي أبو على/ ط دار الفكر للنشر والتوزيع عمان – ط ١٤٠٣ هـــ ١٩٨٤ م.
- دراسات في علم النفس الأدبـــي/ حامـــد عبـــد القـــادر/ المطبعـــة النموذجية.
- دفاع عن البلاغة/ أحمد حسن الزيات/ مطبعة الرسالة
- دلائل الإعجاز, عبد القاهر الجرجاني/ تحقيق محمود شاكر/ مكتبـــة الخانجي القاهرة ١٤٠٤هـــ.
- ديوان ابن الرومي/ شرح: أحمد حسن بـــسج/ طبعـــة دار الكتـــب العلمية.
- ديوان أبي العتاهية/ طبعة دار بيروت للطباعـــة والنـــشر – ســـنة ١٤٠٦هـــ ١٩٨٦.

- ديوان البارودي/ ت: على الجارم، ومحمد شفيق معروف/ دار العودة – بيروت – ١٩٩٨ م.
- ديوان الخنساء/ ت: حمدو طماس/ الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م/ دار المعرفة – بيروت.
- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري/ت مصطفى السقا – إبراهيم الإبياري – عبد الحفيظ شلبي – طبعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١م.
- ديوان النابغة الذبياني/ طبعة مطبعة الهلال بمصر ١٩١١ م.
- ديوان امرئ القيس/ ت: مصطفى عبد الشافي/ الطبعة الخامسة/ سنة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م/ دار الكتب العلمية– بيروت.
- ديوان تأبط شراً/ ت عبد الرحمن المصطاوي/الطبعة الأولى – ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ م – دار المعرفة – بيروت.
- ديوان حسان بن ثابت/ ت عبدان مهنا/ الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م/ دار الكتب العلمية – بيروت.
- ديوان ذي الرمة/ ت د. واضح الصمد/ ط دار الجيل– بيروت ط الأولى سنة ١٤١٧ هـ سنة ١٩٩٧ م
- ديوان زهير بن أبي سلمى/ ت حمدو طماس/ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٥ م/ دار المعرفة بيروت.
- ديوان عبيد الأبرص/ ت: أشرف أحمد غدرة/ الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م دار الكتاب العربي– بيروت.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة/ ت: بشير يموت/ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤م/ المطبعة الوطنية – بيروت.
- ديوان عنترة العبسي/ الطبعة الرابعة/ مطبعة الآداب – بيروت سنة ١٨٩٣.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ المؤلف: محمود الألوسي أبو الفضل/ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- سنن الترمذي/ تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- سنن أبي داود/ ت – محمد محي الدين عبـد الحميـد ط المكتبـة العصرية بيروت.
- سنن النسائي/ تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة/ الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.
- شرح الزرقاني علي موطأ الإمام مالك (للإمام محمد الزرقاني)ط دار الفكر سنة ١٤٠١ هـ – سنة ١٩٨١م.
- شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي/ ت: راجي الأسمر/ طبعـة دار الكتاب العربي.
- شرح ديوان علقمة الفحل للأعلم الـشنتمري/ ت: د: حنـا نـصر الحتي/ الطبعة الأولى سنة: ١٤١٤هـ ١٩٩٣ م.
- شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول – ﷺ– (بانت سـعاد) لابن حجة الحموي/ ت د: علي حسين البواب/ طبعة دار المعـارف – الرياض – سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.
- صحيح البخاري/ ت: محمد ديب البغا/ الطبعـة الثالثـة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.
- صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري – تحقيق محمد ناصـر الدين الألباني/ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ سنة ١٩٨٢ م.
- صحيح مسلم/ دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة ـ بيروت.
- صحيح مسلم بشرح النووي ط ١ ط دار الريان للتراث.
- الصّورة السّمعيّة في الشعر العربي قبل الإسلام د. صـاحب خليـل إبراهيم/١/٤٢ من منشورات اتحاد الكتّاب العرب/٢٠٠٠.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز/ يحيي بـن حمزة العلوي/ دار الكتب العلمية – بيروت–١٤٠٢ هـ ١٩٨٣م.
- عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها صـ د البدراوى زهران ط ٢ دار المعارف سنة ١٩٨١
- عمدة القارى ـ بشرح صحيح البخاري ـ للإمام بدر الدين العينـى (٨٥٥هـ) طبع ونشر علماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية.
- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي/ ت: طه الحاجري ومحمد زغلول/ طبعة المكتبة التجارية – القاهرة – ١٩٦٥م.

- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ت/ أبي عمرو عماد زكى الياوري – المكتبة التوفيقية.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير/ المؤلف: عبد الرءوف المناوي/ الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ/ الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر.
- لسان العرب لابن منظور/ دار صادر ,بيروت.
- مجمع الأمثال المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري/ ت: محمد محيى الدين عبد الحميد/ الناشر: دار المعرفة – بيروت.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي د/محمد محمد أبو موسى/الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م مكتبة وهبة.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل/ ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- مفاتيح الغيب ــ للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي/ الطبعة الأولى/ دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م.
- موسوعة (نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم/ ط دار الوسيلة ط ١ سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م) جده السعودية.
- نظرية العلاقات د. محمد نايل/ دار الطباعة المحمدية.
- النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية, أ.د.سعد أبو الرضا ,ط٢, ١٤٢٨ه
- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني/ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البيجاوي/ المكتبة العصرية – بيروت – لبنان.